وزارة المعارف العمومية

كتاب

التاريخ القديم

لتلاميذ السنة الأولى بالمدارس الثانوية

(حسب المنهج المعدّل)

تأليف

ج . ادجار
المفتش السابق بوزارة المعارف

شفيق غربال
الأستاذ المساعد للتاريخ الحديث بكلية الآداب

القاهرة
طبع بالمطبعة الأميرية ببولاق
١٩٣٤

فهرس الكتاب

بسم الله الرحمن الرحيم

المقـــدمة

معلومات تاريخيـــة أوليـــة

١ – الانسان قبل التاريخ

قبل التاريخ

لم يتمكن المؤرخون من دراسة المـاضى إلا بفضـل ما كتبته الأمم عن أحوالها ، أى ان التاريخ يبدأ عند ما توصل الانسان إلى معرفة فن الكتابة قبل الميلاد بنحو أربعة آلاف عام .

وقبل معـرفة الكتابة عاشت على سـطح الأرض أمم عدة لا سبيل إلى وصف ما كانت عليه إلا بدراسة آثارها المختلفة ، وعلى الأخص الآلات المتنوعة التى استعملتها . وقد اعتاد المؤرخون تسـمية الأزمان القاصية التى عاشت فيها تلك الأمم " بقبل التاريخ " .

تقسيم قبل التاريخ إلى أربعة عصور

ينقسم العهد قبل التـاريخ إلى أربعـة عصور على حسب الآلات المستعملة :

(١) العصر الحجرى القديم

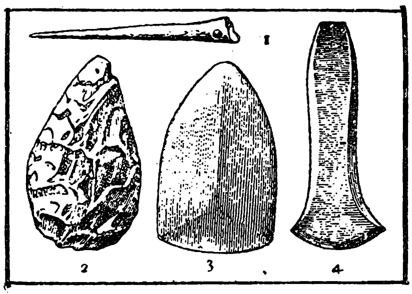
فأقدمها كلها عصر اتخـذ الانسان فيه الآلات التى تلزمه من الأحجار إما كما هى أو بعـد نحت بسيط . ويسمى ذلك العصر " بالعصر الحجرى القديم " .

(٢) العصر الحجرى الحديد

ثم أخذ الانسان بعد ذلك فى الترقى فى نحت الأحجار ، فأصبحت الآلات الحجرية متقنة إتقانا عجيبا ، ويعرف عصر استعمالها " بالعصر الحجرى الحديد " .

(٣) عصر البرونز

وتعلم بعد ذلك استعمال المعادن ، فاتخذ الآلات من النحاس كما وجده فى الأرض ، ثم تبين له أنه إذا خلط النحاس بالقصدير حصل على معدن أشد من النحاس صلابة وهو البرونز .



(شكل ١ — بعض الآلات قبل التاريخ)

(٤) عصر الحديد

ثم أمكنه بعد ذلك أن يستعمل الحديد ، وذلك فى العصر الرابع من العصور السابقة للتاريخ .

اختلاف الأمم فى الترقى

ويجب ألا نفهم من هذا التقسيم أن الأمم كلها مرت فى تلك العصور الأربعة الواحد بعد الآخر ، فبعضها بقى يستعمل الآلات من الحجر دهرا طويلا جدا ، وبعضها كان سريع الخطى عرف الكتابة وقت أن عرف المعادن ، وبعضها انتقل من استعمال الحجر إلى استعمال الحديد دفعة واحدة .

الحياة فى العصر الحجرى القديم

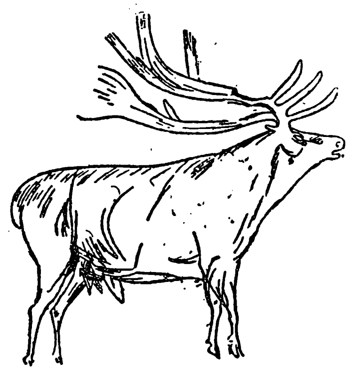
كان الانسان فى العصر الحجرى القديم بائسا شقيا ، يأوى إلى الكهوف ، لا يعرف الزراعة ، ولا كيف ينتفع من الحيوان بتذليله ، لا يستقر فى مكان واحد ، بل يلتمس رزقه بالصيد وجمع الثمار .

فكان أبدا يترقب الفرص للايقاع بالوحوش أو يتخذ لنفسه ما يقيه شرها ، وكانت الحرب سجالا بين الانسان وأخيه يتنازعان الصيد والمأوى ، وعلى

الجملة كانت حياة الانسان مملوءة هلعا . يرتجف فرقا إذا برقت السماء أو رعدت ، أو جن الليل .

بدء الفنون

ولكنه إذا شبع وارتوى وهدأت هواجسه يميل إلى صنع أشياء يزين بها نفسه أو مأواه ، كأن ينظم من أسنان الحيوان عقودا أو يرسم على عظامها أشياء مما يقع عليها نظره . وهكذا بدأت الفنون لما وجد الانسان من وقته متسعا لتدبر الخليقة ومحاولة محاكاتها .



(شكل ٢ — مثال من فن الرسم قبل التاريخ)

إيقاد النار

وأهم من ذلك كله توصله إلى معرفة كيف يوقد النار ، إذ أنه أزال بذلك بعض شظف عيشه ، فدفىء ، وصلح طعامه ، وزالت وحشة الظلام .

الحياة فى العصر الحجرى الجديد وآثاره الضخمة

ثم تدرج فى الرقى فأصبح يتقن صنع الالات ، وتعلم الزراعة ، وسخر الحيوان ، ونسج المنسوجات ، وصنع الآنية من الفخار . والظاهر أن أهل ذلك العصر كانت لهم عبادات ، فقد خلفوا أحجارا ضخمة مرصوصة ربما كانت لازمة لتعبدهم أو لدفنهم .



(شكل ٣ — آثار دينية للعصور السابقة للتاريخ)

بدء الجماعات السياسية والقوانين

وقد أدى تعلمهم الزراعة إلى استقرارهم فى الأرض . ونتج من هـذا انتظامهم فى قبائل تخضع لقواعد ونظم . ولا بد أن ذلك قـد خفف من عسف الأقوياء .

استعمال البرونز

اتخذ الناس فى آخر العصر الحجرى الجديد الآلات من النحاس . ويقال إن أول ما كان من ذلك كان فى مصر أو فى جزيرة قبرص ، فاسم هذه الجزيرة باللغة الإغريقية القـديمة معناه النحاس ، ثم أخذوا يضيفون إلى النحاس القصدير ويحصلون بذلك على البرونز وهو يفضـل النحاس ، ويرجع عهد استعماله فى مصر وفى بابل إلى ما قبل الميلاد بثلاثة آلاف سنة ، ومن مصر أو من بابل أو منهما معا انتشر العلم به إلى جزيرة كريد وغيرها .

استعمال الحديد

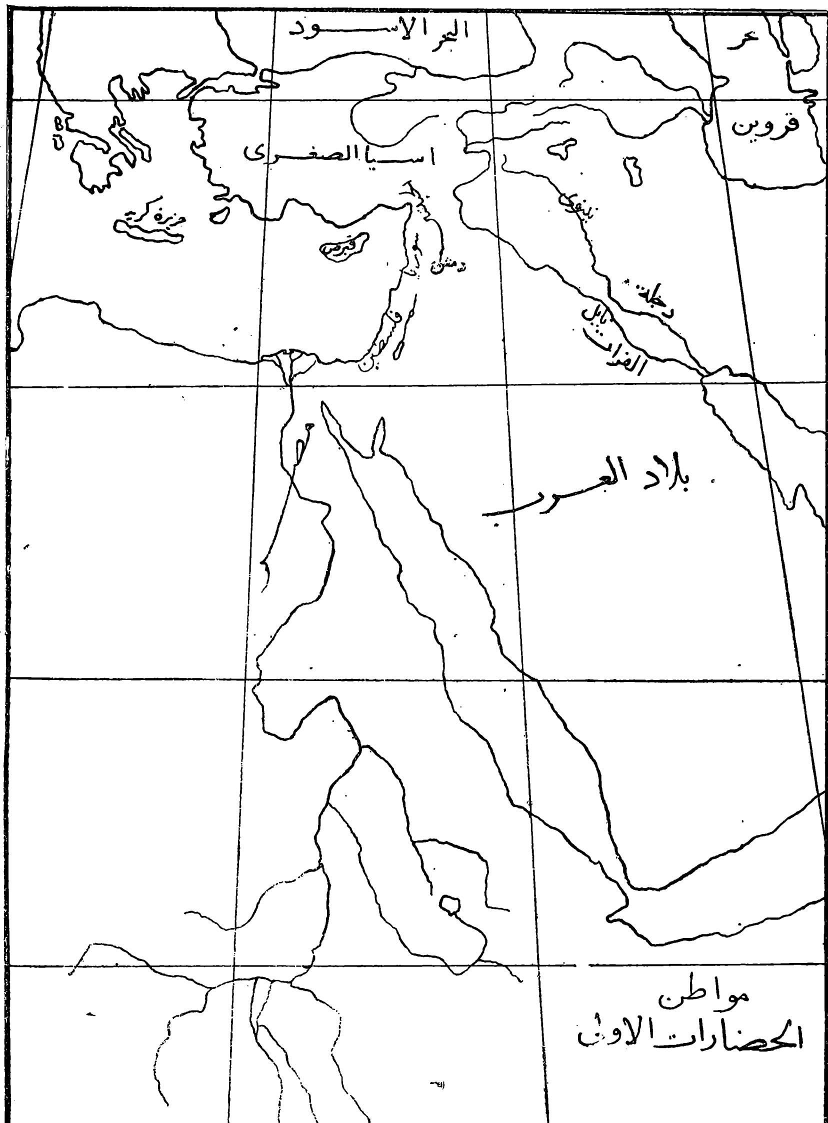
واستمر الناس دهرا طويلا لا يستعملون إلا البرونز ، فقد صعب عليهم استعمال الحديد وذلك على الرغم من ثقل البرونز ، فلم نعثر على ما يدل على أن المصريين عرفوه قبل ألف وخمسمائة سـنة قبل الميلاد . وكانوا يسمونه " معدن السماء " وربمـا كانـ سبب ذلك استخراجهم له من الشهب الساقطة من السماء .

معرفة الكتابة

أول ما بدأ الناس كانوا يعـبرون عن الشيء برسم شكله ، ثم صاروا يستعملون الرسم للافصاح عن معان : فاذا أرادوا أن يعبروا عن الحرب رسموا سهمين متضادين ، أو الأكل رسموا رجلا يضع يده فى فمه . وتلا ذلك جعل الرسم يدل على اسم شيء ، وللتوصل إلى ذلك استعملوا الجناس اللفظى للتعبير عن شيئين مختلفين برسم شـكل واحد ، مثال ذلك أن المصريين كانوا يسمون الابن اسما قريبـا من اسم الأوزة فعبروا عن الابن برسم شكل الأوزة . ثم جاء بعد ذلك استعمال الرسم للتعبير لا عن كلمة بأكملها بل عن حرف واحد منها ، وهذا أصل الحروف الهجائية .

بدء التاريخ وقيام الحضارة

وقد بدأ التاريخ عند ذلك ، ولم يبدأ فى كل مكانـ فى وقت واحد . فمبدؤه فى مصر أقـدم كثيرا من مبدئه فى أوربا ، إذ أن الحضارة قامت أولا فى أحواض أنهـار عظيمة كثيرة الخصب عاش فيها الانسان عيشة


البحر الاسود
بحر
قزوين
اسيا الصغرى
جزيرة كريت
قبرص
دمشق
فلسطين
نينوى
دجلة
بابل
الفرات
بلاد العرب
مواطن
الحضارات الاولى

راضية فتمدين وتفنن وقام بجلائل الأعمال ، نعنى بذلك حوض النيل وأراضى الدجلة والفرات .

ثم انتشرت الحضارة فى جزر البحر الأبيض المتوسط وأشباه جزره ، فسطع نورها لامعا من كريد و بلاد الاغريق وايطاليا .

ثم انتقلت إلى غربى أوروبا وشماليها ، وقامت عندئذ الحضارة الأوروبية التى أخذت تمتد من مراكزها فى أوروبا والأمريكتين وتحاول بسط سلطانها السياسى والعلمى والتجارى والصناعى على العالم كله .

الأجناس الثلاثة التى قامت على أيديها الحضارات

وقد قامت الحضارات التى ذكرناها على أيدى أجناس ثلاثة هى :

(أولا) جنس البحر الأبيض المتوسط أو الجنس الإفريقى الأبيض .

(ثانيا) الجنس الألپي (نسبة لجبال الألپ) .

(ثالثا) الجنس الشمالى أو النوردى .

ويسكن الأول الأرض حول البحر الأبيض المتوسط ، والثانى الأرض الجبلية الممتدة من هضبتى إيران وأرمينية غربا إلى جبال الألپ ، وقد امتد هذا الجنس فى بعض الجهات جنوبا نحو البحر الأبيض المتوسط ، ويلاحظ هذا على وجه خاص فى سوريا وفى الشاطئ الشرقى للبحر الادرياتيكى . أما الجنس الثالث فهو يسكن الأرض حول بحر بلطيق .

وجنس البحر الأبيض المتوسط أقسام يختلف بعضها عن بعض ، فالعرب مثلا قسم من أقسامه والليبيون قسم ثان وهكذا .

الساميون والآريون

هذا ويطلق الناس أحيانا على السلالات البشرية ألفاظا لاتدل فى الحقيقة على أجناس بل على لغات كلفظ "ساميين" ولفظ "آريين" . فالواقع أنه ليست هناك أجناس سامية أو آرية إنما هناك لغات سامية لها مميزات خاصة كالعبرية والعربية ولغات آرية لها مميزاتها أيضا كاللغات الأوروبية .

الباب الأول

المدنية المصرية القديمة

الفصل الأول

مصادر التاريخ المصرى القديم

مصادر التاريخ المصرى القديم

مصادر التاريخ المصرى القديم ثلاثة : (أولها) ما تركه المصريون القدماء من آثار مختلفة ، (ثانيها) ما كتبوه عن أنفسهم ، (ثالثها) ما كتبه مؤرخون قدماء ، ولكنهم جاءوا بعد الأزمنة التى وصفوها .

التقدم الحديث فى دراسة تاريخ مصر والأمم التى ارتبطت بها

وقد زاد علمنا أثناء القرن التاسع عشر بتاريخ مصر القديمة والأمم التى ارتبطت بها زيادة كبيرة . فقد تمكن المؤرخون فى مبتدئه من فك حروف اللسان المصرى القديم وقراءة ما سطره المصريون القدماء على جدران المبانى وقراطيس البردى . وفى القرن التاسع عشر أيضا كشف العلماء عن مدنية باهرة موطنها جزيرة كريد وتعاصر الحضارة المصرية القديمة ، ولم يكن الناس قبل القرن التاسع عشر يعرفون عنها شيئا أكيدا ، وفيه أيضا كشفوا عن آثار أمة عظيمة الشأن موطنها آسيا الصغرى اشتبكت مع فراعنة مصر فى حروب طويلة ونازعتهم سلطانهم فى سورية وفلسطين هى أمة الحيثيين وما زال أهل التاريخ والآثار يوالون البحث والتنقيب فيما طمسته الرمال من آثار القدماء ويعيدون النظر فى معلوماتهم عن عصور التاريخ المصرى المختلفة .

ما كتبه المؤرخون القدماء

لمؤرخى مصر القديمة المحدثين اذن ميزة كبرى على مؤرخيها الأقدمين . إذ أن هؤلاء كانوا لا يعرفون اللغات القديمة ، فكانت كل كتابة تركها المصريون طلسما وقفوا أمامه عاجزين ، ولذلك لم تكن هناك قيمة علمية كبيرة لمؤلفاتهم . و كل ما فيها من فائدة وصفها لأحوال الأمة وقت كتابتهم عنها وما احتوته من أساطيرها وقصصها . ولا تخلو هذه الأساطير والقصص عن الحقائق التاريخية .

وهؤلاء المؤرخون القدماء إما " أجانب " عن مصر أو " وطنيون " مصريون.

هيرودوت

ومن أشهر أولئك " الأجانب " هيرودوت الاغريقى . عاش هذا الرجل فى القرن الخامس قبل الميلاد وجال فى بلاد الشرق قبل أن يدون تاريخه . وأهم ما فى كتابه وصفه لظهور أمم الشرق وللكفاح الشديد بين الفرس والاغريق. وكان هيرودوت يدون كل ما يسمع ، فجاء تاريخه جامعا للغث والسمين ، و إن كان ممتعا لطيفا . والجزء الخاص بمصر من تاريخه ليس كله على حال واحدة من الاجادة والصدق .

ديودور

وكتب عن مصر أيضا ديودور الصقلى ، وقد عاش فى القرن الأول بعد الميلاد . و وصفه لها لا بأس به إذا اعتبر صورة لها فى وقته .

مانيثون

أما المؤرخون "الوطنيون" فأهمهم جميعا مانيثون ، وهو كاهن مصرى عاش فى مدينة سمنود ، قام بأمر بطليموس فيلادلفوس ملك مصر بجمع كل ما أمكنه من المعلومات عن ملوك مصر القدماء . وقد كتب مانيثون باللغة الإغريقية ولكن لم يصلنا ما كتبه الا عن نسخ النساخين .

والظاهر أن مانيثون كان دقيقا فى تحريه الحقيقة . لذلك بقى تاريخه مصدرا مهما من مصادر التاريخ المصرى حتى أمكن العلماء قراءة اللغة المصرية القديمة . وللآن لايزالون يتبعونه فى تقسيمه ملوك مصر إلى طبقات أو أسرات . وقد أيدته الآثار أيضا فى كثير من المواضع وعلى الأخص

فى كلامه على الأسرات الثانية عشرة والثامنة عشرة والتاسعة عشرة ، وأضعف ما فيه ما جاء خاصا بالفترة بين الأسرتين الثانية عشرة والثامنة عشرة ، وعذره أنها كانت عهد اضطراب شديد .

فك رموز اللغات القديمة

بينا أنه من مصادر التاريخ ما كتبته الأمم القديمة عن أحوالها ، و بديهى أن ذلك المصدر بقى مهملا إلى أن تمكن العلماء من فك رموز اللغات القديمة .

قراءة اللغة المصرية القديمة

وصفنا [١] كيف عرف الناس الكتابة ؛ وكيف توصلوا للتعبير بالرسم عن الحروف الهجائية . وقد وصل المصريون القدماء لذلك ، ولكنهم لم ينفكوا عن التعبير عن الشىء برسم شكله ، فجاءت كتابتهم خليطا وتعرف بالهيروغليفية ثم اختزلوها بعض الشىء وأوجدوا كتابة استعملها الكهنة والتجار وتعرف بالهيراطيقية . وفى القرن السابع قبل الميلاد كتبوا كتابة دارجة تعرف بالديموطيقية . وفى عهد البطالسة انتشر استعمال اللغة الإغريقية وكتب المصريون إذ ذاك لغتهم بحروف إغريقية وهذه هى اللغة القبطية . وفقدوا شيئا فشيئا فهم الرموز القديمة وذلك قبل حلول القرن الخامس قبل الميلاد .

حجر رشيد

بقيت الحالة كذلك إلى أن عثر ضابط فرنسى أثناء احتلال الفرنسيين مصر فى آخر القرن الثامن عشر على حجر بالقرب من رشيد عليه كتابات هيروغليفية وديموطيقية و إغريقية ، وقد استولى البريطانيون على هذا الحجر فيما استولوا عليه عند إجلائهم الفرنسيين عن مصر ، وأودعوه متحفهم العظيم بلندن . بعد ذلك ترجمت الكتابة الإغريقية ووجدت عبارة عن تحدث من الكهنة المصريين بفضل بطليموس الخامس عليهم . ثم نجح توماس ينج الانجليزى فى معرفة عدة حروف هيروغليفية . وكانت وسيلته فى ذلك مقارنة الأعلام فى الثلاث الكتابات إذ الأعلام لاتترجم . إلا أن الفضل الأكبر فى قراءة اللغة المصرية يعود إلى شامبليون الفرنسى .

---

(١) راجع صفحة ٤

حجر بلرم وقرطاس تورين

أمكن العلماء بعد ذلك قراءة النقوش المصرية . وقدوجدوا أن المصريين القدماء لم يكتبوا تاريخا كما نفهم الآن ، وانهم لم يحفلوا كثيرا بالدقة فى تدوين الحوادث وضبط الأيام . وأن "التاريخ" عندهم لا يتعدى "كشوفا" بأسماء ملوكهم. ومن أقدم تلك الكشوف ما هو مسطر على حجر مودع بمتحف بلرم بجزيرة صقلية. وهذا الحجر يشمل أسماء الملوك إلى الأسرة الخامسة وتجد كشوفا من هذا النوع أيضا مسطرة على جدران معابد وقبور الأسرتين الثامنة عشرة والتاسعة عشرة وهناك أيضا كشف مهم عن عدد سنى حكم الملوك على ورقة من البردى محفوظة الآن فى متحف تورين .

حساب السنين

لم يكن للمصريين سنة واحدة يبدءون منها حساب تاريخهم فاذا أرادوا تعيين سنة مثلا قالوا إنها هى التى حدث فيها هذا الحادث أو ذاك أو هى السنة الأولى أو الثانية مثلا لهذا الملك أو ذاك وهكذا ، أى لم يبدءوا تاريخهم من حادثة واحدة مهمة كميلاد المسيح أو هجرة النبى مثلا كما نفعل الآن . وعلى ذلك نرى بين المؤرخين الآن اختلافا كبيرا جدا فى حساب السنين : فمنهم من جعل الأسرة الأولى يبتدئ حكمها سنة ٥٨٦٩ قبل الميلاد ، ومنهم من جعلها تبتدئ سنة ٣٢١٥ وهذا فرق كبير . ولا يتفق المؤرخون إلا عند الوصول إلى القرن السابع قبل الميلاد .

الفصل الثانى

مصر ، وصفها و بدء قيام الحضارة فيها

وصف مصر

مصر كما قال هيرودوت : "هدية من النيل". والنيل بين جنادل أسوان والبحر الأبيض المتوسط ينقسم إلى جزأين يمتاز أحدهما عن الآخر تماما . يجرى الجزء الأول منه فى صدع فى الهضبة الإفريقية، والثانى فى سهل من

الطين من صنعه، فانقسمت مصر بذلك قسمين مختلفين : مصر العليا ومصر السفلى : الصعيد والدلتا .

الدلتا

أما مصر السفلى فدلتا تكونت فى البحر الملح فى آلاف من السنين وقبل أن تتولاها يد الإنسان بالصرف والزرع كانت حمأة مستوحلة يكثر فى مستنقعاتها السمك والطيور المائية .

وغربى الدلتا تمتد الصحراء الإفريقية وبها بالقرب من مصر سلسلة من الواحات ويسمى هذا الغرب "ليبيا" ومنها غزا مصر فى مختلف العصور أقوام شتى أخرجتهم من مواطنهم السنون المجدبة .

وشرقى الدلتا صحراء جرداء ولكنها لم تمنع عن مصر إغارات المغيرين ففيها مسالك ودروب توصل لآسيا .

الصعيد

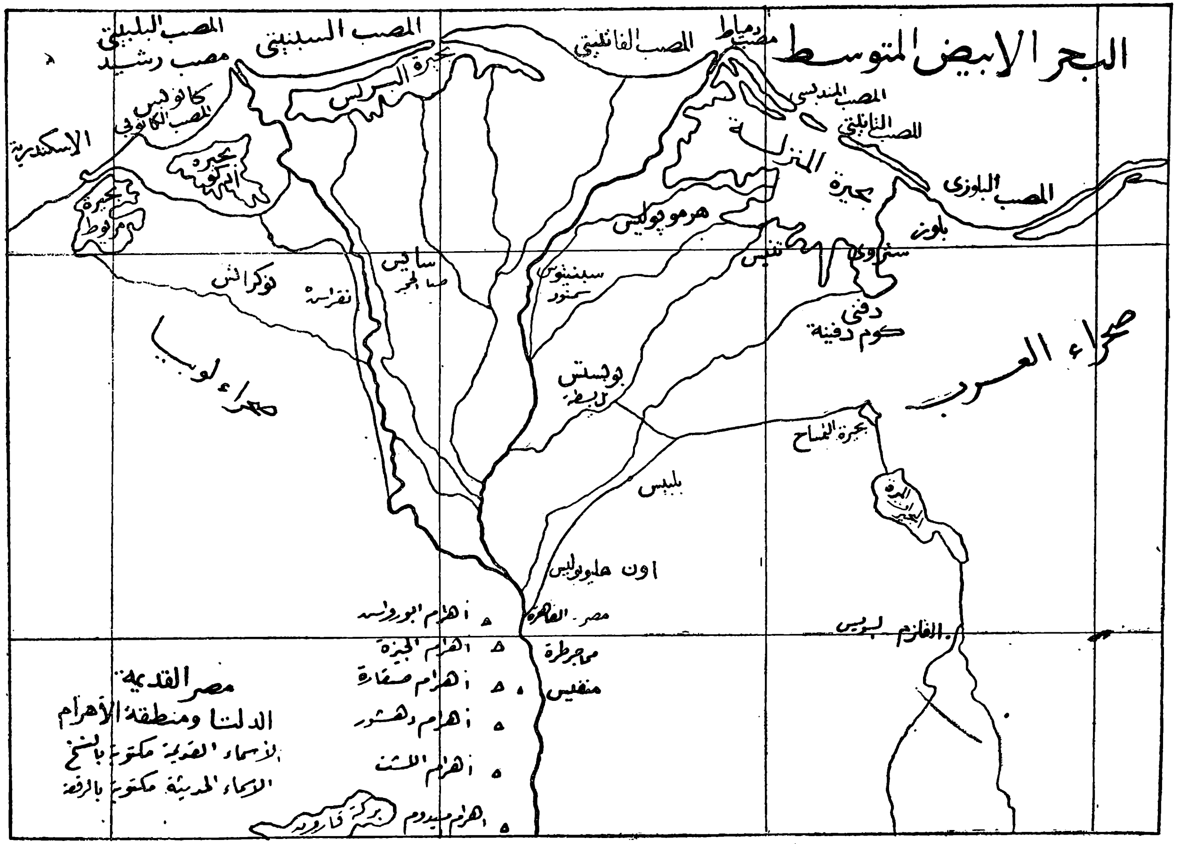
ويحف الصعيد من الجانبين حافتا الهضبة، ويختلف عرضه بينهما . وجنوبى طيبة يضيق إلى ميلين . وعند أسوان وحلفا تعترض النهر أحجار شديدة الصلابة هى الجنادل .

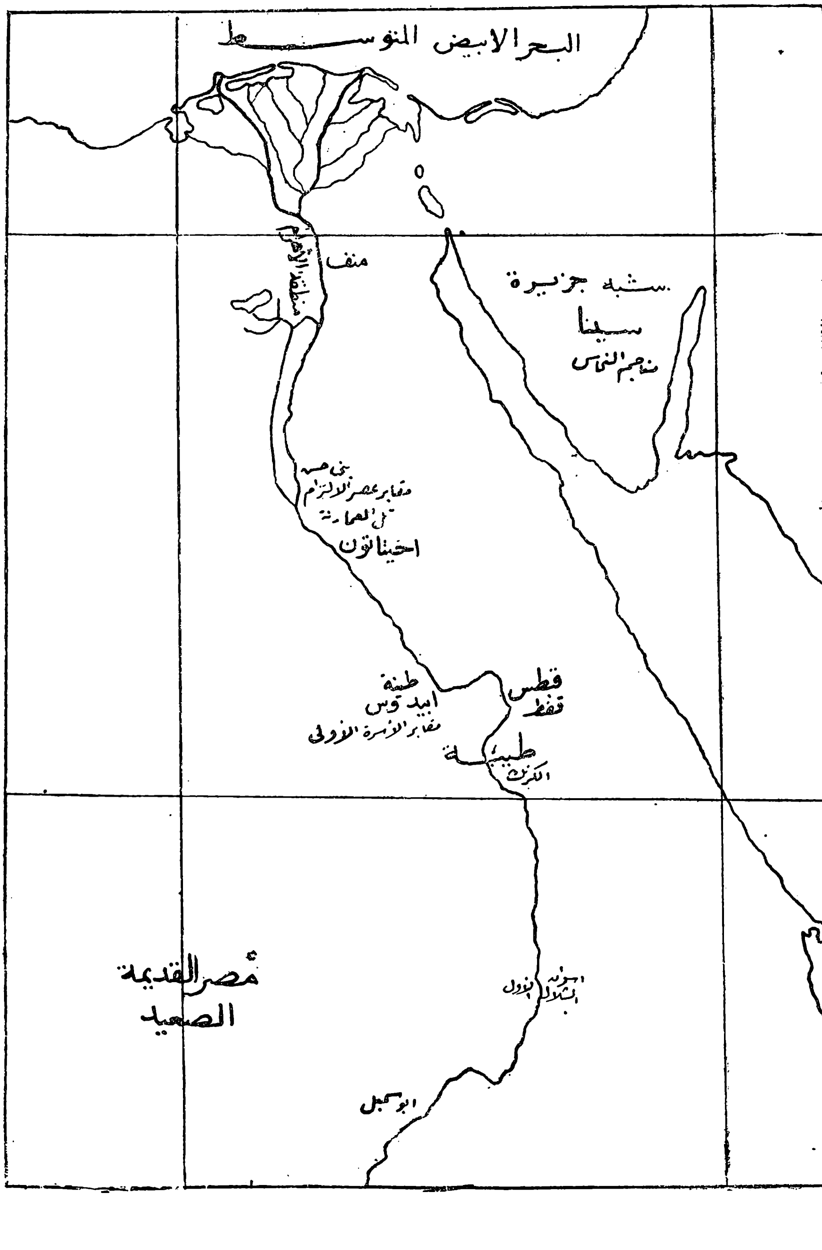
وليس الصعيد بمعزل عن الأرض شرقية وغربية فكلتا الحافتين تشقهما فى عرضتها وديان عدة ، ومن أشهرها وادى الحمامات ويمتد الى البحر الأحمر من النيل عند قفط ، ويلاحظ اقتراب النيل هناك من البحر الأحمر، ويمتد فى المنطقة نفسها مسلك آخر نحو الواحة الخارجة . وبذلك كانت هذه المنطقة ذات شأن خاص فى تاريخ مصر القديمة .

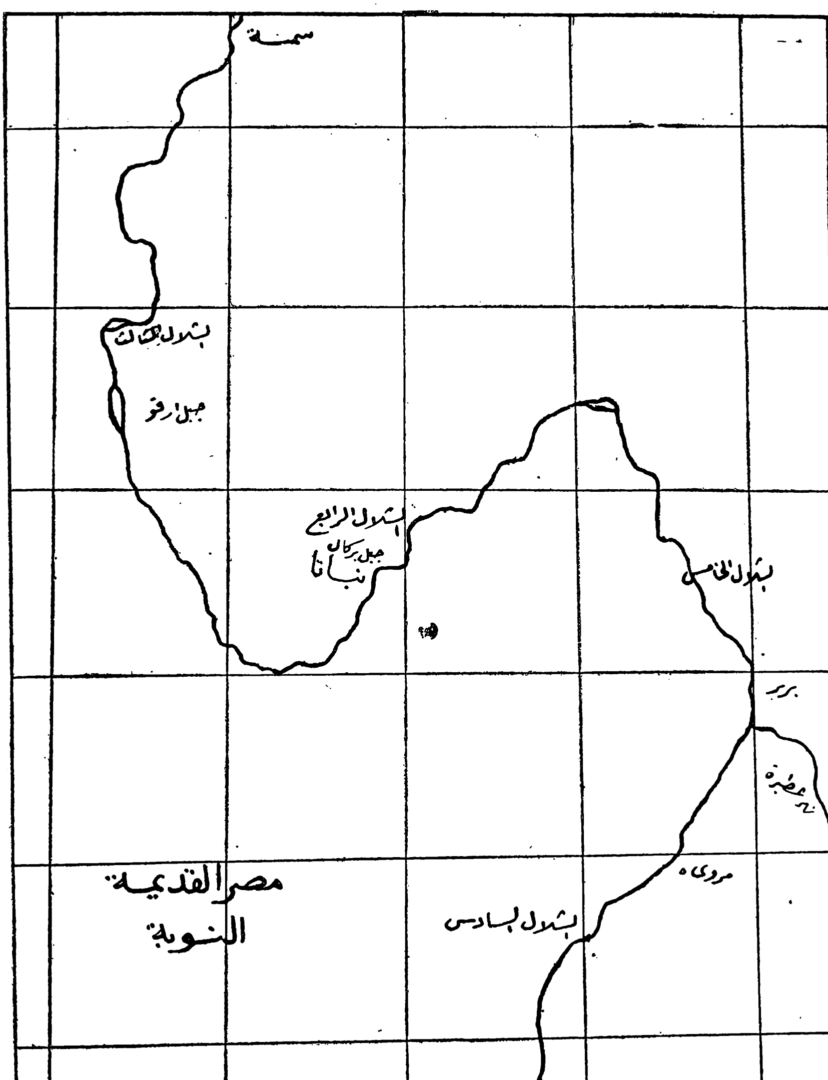
هكذا الحال فى مصر كل ما فيها متوقف على فيضان النيل، يترقب أهلها ارتفاعه كل عام منذ آلاف السنين ويتساءلون فيما بينهم عن ارتفاعه ، ولكن الجواب عن ذلك ليس فى استطاعتهم، فالنيل يجرى من بلاد بعيدة لم يعرفوا عنها شيئا، وكل ما يمكنهم عمله هو العناية بحبس الماء والقسط فى توزيعه ومنع الإسراف فيه .

سكان مصر قبل التاريخ

سكن مصر قبل التاريخ أقوام بدأنا نعرف الكثير عنهم من الصور المرسومة على الخزف التى وجدت فى مقابرهم . والظاهر أنهم كانوا صيادين


البحر الابيض المتوسط
المصب البلبيتي
مصب رشيد
المصب السبنيتي
بحيرة البرلس
المصب الفاتنيتي
مصب دمياط
المصب المندسي
المصب التانيتي
بحيرة المنزلة
المصب البلوزي
بلوز
كانوبس
المصب الكانوبي
الإسكندرية
بحيرة ادكو
بحيرة مريوط
نوكراتش
نقراش
سايس
صا الحجر
سبنيتوس
سمنود
هرموبوليس
تنيس
دفني
كوم دفنية
صحراء ليبيا
صحراء العرب
بوبستس
تل بسطة
بحيرة التمساح
بلبيس
البحيرة المرة
اون هليوبوليس
مصر القاهرة
الفلزم السويس
ميت رهينة
منفيس
أهرام ابوروش
أهرام الجيزة
أهرام سقارة
أهرام دهشور
أهرام اللشت
أهرام ميدوم
بركة قارون
مصر القديمة
الدلتا ومنطقة الأهرام
الأسماء القديمة مكتوبة بالنسخ
الأسماء الحديثة مكتوبة بالرقعة


البحر الابيض المتوسط
منف
منطقة الأهرام
شبه جزيرة
سيناء
مناجم النحاس
بني حسن
مقابر عصر الالتزام
تل العمارنة
اخيتاتون
طينة
ابيدوس
مقابر الأسرة الأولى
قطس
قفط
طيبة
الكرنك
أسوان
الشلال الأول
ابو سمبل
مصر القديمة
الصعيد


سمنة
الشلال الثالث
جبل ارقو
الشلال الرابع
جبل بركال
نباتا
الشلال الخامس
بربر
نهر عطبرة
مروى
الشلال السادس
الخرطوم
مصر القديمة
النوبة

يقتاتون مما تناله رماحهم وتصيبه سهامهم ، ولم يظهر فى تلك الصور أنهم زاولوا الزراعة أو توجهت اليها أفكارهم . وكان لهم فى النيل قوارب تسير إما بالمجاذيف وإما بالقلاع . أما مساكنهم فكانت أكواخا أقاموها على الأرض المرتفعة التى لا يعلوها الماء ، وقد وجدوا لهم أعلاما اتخذوها على قواربهم وقالوا إنهم كانوا قبائل لكل منها علمها وموطنها الخاص بها ، وسموه باسم معبودهم . وان أقسام مصر القديمة أصلها تلك المواطن .

ولابد من أن سكنى هذه القبائل فى واد طويل كوادى النيل أدت الى ارتباطها بعضها ببعض ارتباطا تجاريا ،ولابد أيضا من أن الارتباط التجارى سهل تبادل الأفكار وتعلم الناس بعضهم من بعض . والثابت أيضا أنهم اتصلوا بالبلاد خارج مجرى النيل .

أصل الحضارة المصرية

ومعنى ذلك أن مصر توافرت فيها كل مسببات الحضارة . والحضارة المصرية أصلها حينئذ فى وادى النيل نفسه . ولكن من المؤرخين من يزعم أن أهم عناصر تلك الحضارة جلبه من الخارج أقوام أغاروا عليها ، ويدعى أنهم أسيويون لغتهم سامية دخلوا مصر من شرقى الدلتا أو من طريق وادى الحمامات الى النيل . ويستدلون على ذلك بدخول تراكيب سامية فى اللغة المصرية ، وبتغييرات شتى طرأت دفعة واحدة على عبادات المصريين وطرق دفنهم موتاهم .

ينكر ذلك القول مؤرخون آخرون : فيقولون بأنهم يجدون كل عناصر الحضارة المصرية المعروفة قبل التاريخ فى العصر الذى وصفنا حالة أهله ، ويرون أن دراسة أجناس سكان الوادى قبل التاريخ فيها تفسير لقيام الحضارة التاريخية .

ولقد قسموا تلك الأجناس كما يأتى :

(أولا) سكان الصعيد وهم جنس أقنى الأنف ناعم الشعر يشبه القبائل التى تسكن الآن بلاد الصومال شبها تاما .

(ثانيا) سكان الدلتا وهم ليبيون يشبهون الأسيويين الساكنين شرقى الدلتا ولغتهم سامية . والظاهر أن هؤلاء الليبيين تغلبوا على سكان الدلتا الأصليين وهم من الجنس الإفريقى الأبيض أو جنس البحر الأبيض المتوسط ودفعوهم نحو الصعيد. وقد أثروا فى لغتهم ودينهم وصبغوهما بصبغة أسيوية ونشروا صناعة المعادن ؛ ثم حدث بعد ذلك تغلب أهل الصعيد على الدلتا وتأسيسهم مملكة واحدة نشطت فيها الحضارة .

وعلى ذلك لم تنشط الحضارة تبعا لإغارة أجنبية .

ولا ينافى ذلك أبدا أن سكان الصعيد أصلهم من الصومال أو من شبه جزيرة العرب وقد كان المصريون القدماء يعتقدون ذلك ؛ ولهم فى ذلك قصة كبيرة منقوشة على جدران معبد ادفو الذى بنى فى عصر البطالسة . وملخص تلك القصة أن المعبود حوريس الذى كان أبوه يحكم فى بلاد النوبة ركب سفينة وتبعه كثير من الجند ونزل منحدرا فى النيل وكان وقتئذ يشغله المعبود ست وأتباعه ، وتقاتل المعبودان وأتباعهما الى أن تم النصر لحوريس. ويرى المؤرخون أن تلك القصة مجموع وقائع تاريخية حقيقية تناقلها المصريون الى زمن البطالسة حين دونوها ، وأنها تشير الى شيئين متميزين لم يحدثا فى وقت واحد وهما :

(أولا) قدوم أجداد أهل الصعيد من الجنوب الشرقى .

(ثانيا) انشاؤهم حكما قويا فى جنوبى الصعيد (فى منطقة ادفو والكاب التى تبينت[١] قيمتها الجغرافية) وتغلبهم بعد ذلك على سكان الدلتا بعد أن تعلموا من أهله صناعة المعادن الأسيوية الأصل .

---

(١) راجع صفحة ١١

الفصل الثالث

عهد الأسرات الأولى ، اتحاد الصعيد والدلتا

نتائج تغلب الصعيد

لما تغلب الصعيد واتحد وادى النيل كله تحت حكم ملك واحد حلت بمصر نهضة كبيرة ، ولملوكها الأول فضل كبير : فقد وحدوا مصر ووضعوا الأساس الذى قامت عليه حضارة عصر بناة الأهرام العظيمة .

مينا

و يصعب علينا أن نصدق أن ذلك العمل كله قام به ملك واحد ، والمعقول أن يكون ذلك ثمرة جهاد ملوك كثيرين . فعلى ذلك لم يكن "مينا" هو الذى قام وحده بتوحيد مصر ووضع أساس عظمتها .

الأعمال المنسوبة اليه

قال المؤرخ هيرودوت : إنه لما تم أمر اتحاد المملكة لمينا أراد هذا الملك الطينى (أى من طينة إحدى بلاد الصعيد) أن يتخذ له عاصمة تكون مركزا لأحكامه ، فاستحسن الموضع الذى به الآن ميت رهينة فحاطه بجسر . وكان النيل يجرى بجانب هضبة ليبيا فحوله فى مجرى مهده بين الجبلين ، ثم حاط الأرض التى تخلفت من ذلك بالجسور وخط فيها مدينة منف ، ثم احتفر حولها فى الجهة البحرية والغربية بحيرة يأتيها الماء من النيل الذى يحد المدينة من الجهة الشرقية فصارت محصنة يحيط بها الماء من ثلاث جهات .

ملوك مصر المتحدة الأول

والظاهر لأحدث المؤرخين أن نسبة كل ذلك لمينا أمر غير مقبول . بل إن بعضهم يشك الآن فى وجود مينا نفسه و يعتقد أن ملكا آخر من ملوك مصر المتحدة الأول أولى منه بالشهرة ، ذلك الملك هو "نارمر" الذى أتم تغلب الصعيد على الوجه البحرى واتخذ عاصمته موضع كفر طرخان التى تبعد عن القاهرة بخمسة وعشرين ميلا .

ومهما كان من أمر ذلك فأصلهم كله من طينة بالقرب من جرجا وكانوا يدفنون فى الموضع المعروف الآن بالعرابة المدفونة .

الأسرتان الثانية والثالثة

وقد تم ملوك هاتين الأسرتين الوحدة الوطنية ، ومهدوا بعماراتهم لرقى مصر أيام بناة الأهرام فى البناء وصنع التماثيــل والرسم ودقيق الصناعات و إتقان الكتابة والاستعانة بها فى تزيين المعابد والقبور .

الملك زوسر

ومن أشهرهم الملك "زوسر" ويدل على رقى الحضارة فى عهده اتخاذه قبرا من الحجر وهو المعروف بالهرم المدرج فى سقارة. وهذا الهرم يشتمل على ست درجات بعضها فوق بعض تنتهى بالشكل الهرمى بحيث تنقص كل درجة عن تاليتها مترين تقريبا ، وهو مبنى بصخور صغيرة و بداخله طرق يضل فيهـا الإنسان ان لم يكن له مرشد . و بنى لنفسه أيضا قبرا آخر من الطراز المعروف باسم "مصطبة" فى بيت خلاف و ربمـا عمل ذلك ارضاء لأهل الجنوب .

الملك سنفرو

والملك سنفرو أيضا من الملوك الأول ذوى الشأن . حارب قبائل البدو الرحالة فى سيناء ،وقد طمحت اليها أطماع الفراعنة الأول لمـا فيها من المعادن وله هرمان أحدهما فى دهشور والثانى فى ميدوم .

الفصل الرابع

عصر بناة الأهرام

حوالى ٢٧٠٠ — ٢٥٠٠ ق . م

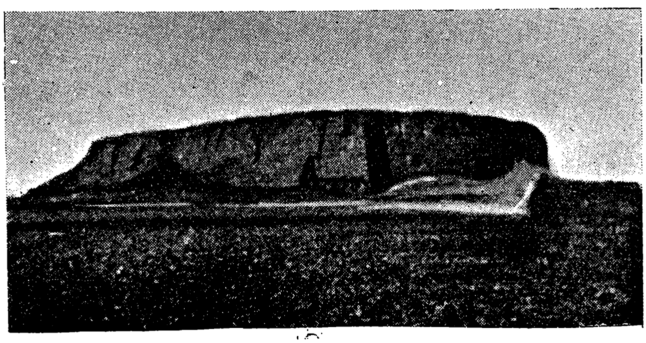
عصر بناة الأهرام

ختم الملك سنفرو العهد الأول من تاريخ مصر الذى تم فيه توحيد قسميها فى مملكة واحدة . وقد بدأ أيضـا عهدا آخر هو عهد بنـاة الأهرام فكان حكمه صلة بين عهدين . وكانت مدافن الملوك حتى أيام هــذا الملك بسقارة ولكنه وملوك الأسرة الرابعة الذين تلوه تركوها فبنى سنفرو هرميه جنو بيها فى دهشور وميدوم و بنى خوفو وخفرع ومنقرع . أهرامهم شماليها .

الهرم والهرم بناء من الحجر داخله مخدع فيه تابوت الملك و بالقرب منه معبد ماحق به تقام فيه الصلوات على روح الملك وتخزن فيه الأشياء المختلفة التى كانوا يعتقدون أنها تلزم الروح فى العالم الآخر. و بالقرب منه أيضا قبور الامراء وغيرهم من تابعى الملك .

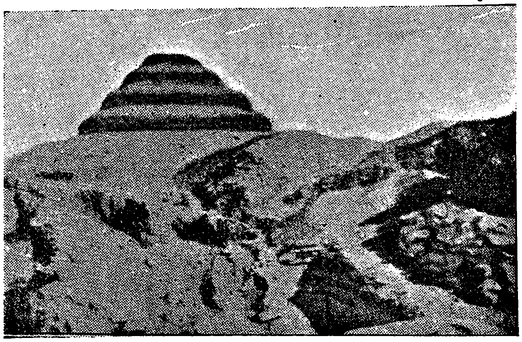
وأجمل الأهرام كلها الهرم الذى بناه خوفو . ومن تأمل فى الأهرام الموجودة يجد فيها تدرجا يمكننا تتبع خطواته .

المصطبة أول تلك الخطوات القبور المعروف الواحد منها باسم المصطبة، والمصطبة بناء مستطيل الشكل من الحجر أو اللبن تميل جوانبه الأربعة نحو مركز واحد وفى الجانب الشرقى منه فتحة توصل الى مخدع به الميت .



(شكل ٤ — مصطبة زوسر بييت خلاف)

الهرم المدرج كانت الخطوة الثانية الهرم المدرج ، وهو عبارة عن مصاطب بعضها فوق بعض أكبرها المصطبة السفلى وتنقص عنها التى تتلوها ، وهكذا .



(شكل ٥ — الهرم المدرج بسقارة)

والخطوة الثالثة كانت كسوة الهرم فكان الناظر يظنه قطعة واحدة قد سبكت فى قالب الدقة والإحكام .

ما يدل عليه بناء الأهرام

وبناء الأهرام يدل على قوة الملوك الذين بنوها وشدة بأسهم، وعلى حسن نظام الحكومة فى أيامهم، وإلا لما أمكنهم جمع الجم الغفير من العمال اللازمين للبناء ولا قطع الأحجار من المحاجر فى البر الشرقى للنيل ونقلها الى البر الغربى.

وتدل أيضا على عظمة أولئك الملوك الذين استودعوا أجسامهم مدافن تنافس الدهر البقاء .

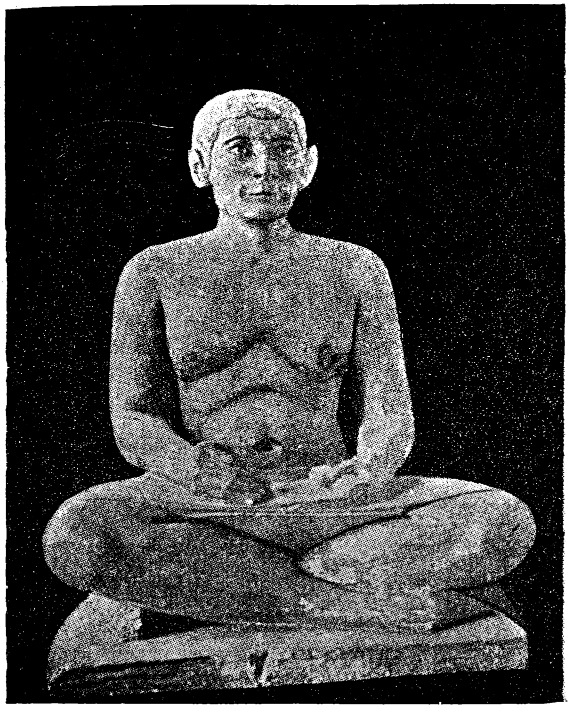
وليست عظمة البناء هى كل ما يستوقف النظر ، فقد استلزم صنع السراديب الخفية والمخادع الداخلية وحساب الزوايا وتنسيق الأجزاء وتناسبها ولحم الأحجار علما كبيرا بقواعد البناء وهندسة العمارة .

يدلنا كل ذلك على أن المصريين بلغوا فى ذلك ما بلغه المهندسون الذين حفروا قناة السويس وشيدوا سد أسوان ، وعلى أنهم استكملوا كل عناصر الحضارة قبل ميلاد المسيح بثلاثة آلاف سنة .

آثار ذلك العصر الأخرى

وليست الأهرام كل آثار ذلك العصر الزاهر ، فقد ترك أهله تماثيل بلغت فى محاكاة الحياة ودقة التعبير عن الوجدان مبلغا لا نجده الا فى تماثيل الأغريق وقت نهضتهم ومن أشهر تماثيلهم تمثال الكاتب القاعد القرفصاء الموجود الآن فى متحف اللوفر وتمثال "رع حتب" وتمثال الأميرة "نفرت" ومن تأمل فيه يجد صانعه قد أبدع فيه : فعليها قميص لاصق بجسمها ترى منه هيئة أجزاء جسمها بغاية من اللطف والحشمة، ولها شعور كثة مربوطة من فوق جبهتها بعصابة مزركشة، وجهها ممتلىء وعيونها واسعة وفمها مبتسم ويزيد فى الدلالة

على علوّ كعب المصريين فى صنع التماثيل أنها كلها من أحجار شديدة الصلابة كالمحبب مثلا .



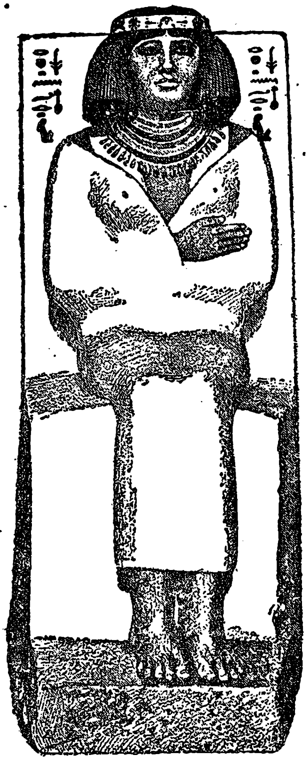
(شكل ٦ — تمثال الكاتب القاعد القرفصاء "متحف اللوفر")

ولم تبلغ صناعة التماثيل بعد مابلغته فى ذلك العصر ، فصار الصناع يخضعون لقواعد لايحيدون عنها فى تركيب أعضاء الجسم مما جعل تماثيلهم بعيدة عن الحقيقة .

بناء الهرم الكبير

بنى خوفو الهرم الكبير كالطود العظيم ؛ وأسس باقامته دعائم شهرته . وقد قال هيرودوت اليونانى : إنه سخر فى بنائه مائة ألف عامل كانوا يبدلون بمثل عددهم كل ثلاثة أشهر ، وكان بعضهم ينحت الأحجار و بعضهم ينقلها

الى النيل وبعضهم يتسلمها وينقلها الى البر الغربى، وأنهم عملوا أوّلا فى عشر سنين طريقا لنقل الأحجار بين النيل وموضع الهرم، وأنهم صرفوا فى البناء نفسه عشرين سنة . وادعى هيرودوت أيضا أن خوفو أغلق المعابد ومنع



(شكل ٨ — تمثال الأميرة نفرت)



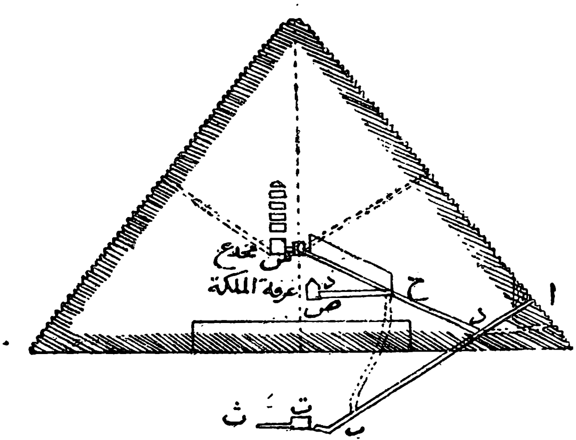
(شكل ٧ — تمثال رع حتب)

العبادة ثم أنه ندم فى آخر أيامه على عسفه وضلاله فاستقام فى أحوال وصار تقيا صالحا . وزعم هذا المؤرخ أن الناس جميعا أبغضوا هذا الملك وخلفه الذى بنى الهرم الثانى فأنفوا من التلفظ باسميهما وتغالوا فى كرههما فأخرجوا جثتيهما من مرقدهما وقطعوهما إربا إربا ثم دفنوهما فى مخابئ لم يتيسر لأحد العثور عليهما . هذه هى المزاعم الإغريقية يرددها الناس حتى الآن فلا بد من تمحيصها .

وصف الهرم الكبير

يبلغ طول كل ضلع من أضلاع قاعدته نحو **٢٣٣** مترا أى أن مسطحها يزيد على **١٢** فدانا ، أما ارتفاعه فكان وقت تشييده **١٤٥** مترا ثم تناقص بتهدم قمته حتى صار **١٣٧** مترا .

وفى الجهة البحرية منه زلاقة خفية حرف (ب) و يبتدئ مدخلها عند حرف (ا) وتسد بحجر يدور على محور ، فاذا دخلها الانسان وجد هذه الزلاقة أمامه وطولها **٩٧** مترا . واذا سار فيها وجدها تمر أوّلا بحجرة ناقصة البناء حرف (ت) ثم تنتهى بسرب أفقى حرف (ث) . وتصعد من الزلاقة على بعد تسعة عشر مترا من الدخل أى عند (د) زلاقة توصل الى مخدع الملك وهى حجرة عظيمة جميع أحجارها من الصوان المصقول (س) وفيها منفذان للهواء يخترقان الهرم الى الخارج وبها تابوت كان الملك مدفونا فيه . ويخرج من الزلاقة الصاعدة عند (ح) سرب أفقى حرف (ذ) موصل الى حجرة تعرف الآن بغرفة الملكة حرف (ص) وعند بدء ذلك السرب فوهة بئر يبلغ عمقها **٦٣** مترا . وفوق مخدع الملك خمس حجرات بعضها فوق بعض القصد منها تخفيف ثقل البناء .



وصف هرم خفرع

بنى الملك خفرع الذى حكم بعد خوفو هرما شاهقا بالقرب من الهرم الكبير إلا أنه أصغر منه وكان مكسوا أوّل الأمر بالحجر الجيرى وقد ذهبت عنه الكسوة ولم يبق منها إلا القليل عند القمة .

وصف هرم منقرع

وهرمه أصغر الثلاثة وكانت كسوته مصقولة صقلا جيدا، وزعم مؤرخو الإغريق أن منقرع كان أعدل حكما وأرأف بالرعية من سلفيه فلهج الناس بمدحه .

هل فى بناء الأهرام عسف

والواقع أن هؤلاء المؤرخين بالغوا كثيرا فى وصف عسف خوفو وخفرع فالثابت أنهم لم يسخروا الناس فى العمل إلا وقت الفيضان وكان إذ ذاك وقتا يغمر فيه النيل الأرض وتتعطل الحياة الزراعية الى أن ينحسر الماء . وأن التسخير مدة ثلاثة شهور فقط لم تكن فيه مشقة كبيرة . هذا الى أن التسخير كان فى عمل فنى عظيم أكسب الشعب دراية فنية عظيمة ومهارة فائقة فى إتقان الصنع .

ولم نسمع عن قدماء المصريين ما يدل عن قسوة كما سمعنا عن غيرهم من أمم الشرق القديم كالأشوريين .

ولم يكن الملك المصرى من السلطة بحيث يفعل مايريد فقد كان خاضعا لقواعد مرعية لايحيد عنها إرضاء لحاجة فى نفسه أو تشفيا من مسىء . ولا ينقض ذلك أن المصريين ألهوا ملوكهم . فآلهة الوثنية لا تختلف فى فضائلها ونقائصها عن البشر .

الفصل الخامس

نهاية الدولة القديمة

الأسرة الخامسة أصلها

ظهرت الأسرة الخامسة أثر الرابعة . وكانت بين المصريين القدماء قصة شائعة مؤداها أن الثلاثة ملوك الأول من هذه الأسرة من نسل معبود الشمس. وقد استنبط المؤرخون من تلك القصة أن مؤسس الأسرة الخامسة من نسل الكهنة . فيكون الكهنة بذلك قد أصبح لهم نفوذ سياسى فى آخر أيام الأسرة الرابعة ثم اغتصبوا العرش لأنفسهم .

الحضارة أيام الأسرة الخامسة

وقد ساس ملوك هذه الأسرة البلاد سياسة لابأس بها ، وشادوا اهراما وأصلحوا المعابد ، إلا أن الاهرام التى بنوها أصغر كثيرا من أهرام الأسرة الرابعة ولكنها أجمل منها زينـة فى الداخل . وتمتاز المعابد الملحقة باهرام الأسرة الخامسة بعمدها المصنوعة من المحبب و بالرسوم الجميلة على جدرانها[١] .

الدين أيام الأسرة الخامسة وهرم أوناس

ابتدأ المصريون أيام الأسرة الخامسـة يجمعون معتقدات دينية مختلفة معا فقد وجد الباحثون فى حجرات هرم الملك أوناس بسقارة نقوشا هيروغليفية على الجدران هى مجموع طلاسم وعزائم تحول المآكل والمشارب الى حقائق يتناولها الملك أوناس وتنوب عن الضحايا والقرابين المرتبة للهرم متى انقطعت ، وتضمن له الملك فى الآخرة كما كان ملكا فى الدنيا وهـذه النقوش تسمى نصوص الاهرام . ثم تدرجت حتى أصبحت تنقش على مقابر العظماء والأغنياء أو تكتب على ورق البردى وتوضع فى القـبر لكى تحفظ الروح من الأخطار التى تهددها فى الدار الآخرة فتمنع عنها نهش الثعابين والأخطار السامة ، وتقيها شر الأرواح الشريرة ، وهكذا. وهذه النقوش الأخيرة تعرف بكتاب الموتى.

نصوص الاهرام وكتاب الموتى

وتُعَدّ نصوص الأهرام والمجموعة المعروفة باسم كتاب الموتى مصدرا مهما لمعلوماتنا عن الدين المصرى القديم .

الأسرة السادسة بيبى الأول ووزيره أونا

أشهر ملوك هـذه الأسرة الملك بيبى الأول وقد طال حكمه نحو عشرين سنة وظهرت آثار همته فى جميع الأرجاء : فغزا النوبة وهزم بدو طورسيناء . وقد ترك وزيره أونا وصفا طويلا لتلك الأعمال والغزوات والنعم التى أغدقها بيبى عليه جزاء صادق خدمته .

والظاهر فى وصف أونا أن القصد من تلك الغزوات كان الحصول على حاصلات بلاد النوبة وطورسيناء ومنع أهلها من الاعتداء على حدود الدولة المصرية .

---

(١) يتجلى الاتقان الذى بلغه فن الرسم أيام هذه الأسرة فى الرسوم المنقوشـة على جدران قبرى تى و بتاح حتب بسقارة .

ضعف الملكية وبدء نظام الالتزام أو النظام الاقطاعى

وفى أيام هذه الأسرة بدأ الضعف يدب فى سلطة الملك . ومما يدل على ذلك أن الأمراء بعد أن كانوا يدفنون بالقرب من الملك صاروا يدفنون فى بلادهم . وكانوا يقتتلون فيما بينهم . فساد الاضطراب ، واختلت أحوال البلاد ، وانحط الفن المصرى . واغتصب الأمراء وظائف الدولة ، هذا هو بدء نظام الالتزام .

وفى هذا النظام لايقتصر صاحب الأرض على زرعها وتأدية ما عليها بل يقوم بوظائف مهمة مثل إدارة الأمور والقضاء بين الساكنين فى أقطاعه أو دائرة التزامه .

فظهرت أسرات قوية فى مدن مختلفة مثل أرمنت وأسيوط وطيبة ، وكل هذه الأسرات لها استقلال كبير من الملوك الذين حكموا بعد الأسرة السادسة . وقد كوّن مانيثون من أسماء هؤلاء الملوك الضعفاء الأسرات السابعة والثامنة والتاسعة والعاشرة .

ظهور طيبة

وقد قويت شيئا فشيئا أسرة الأمراء الحاكمين فى طيبة وبدأت منذ ذلك الحين عظمة تلك المدينة الخالدة الصيت . ولطيبة موقع جغرافى يفسر مكانتها التاريخيــة ، فهى فى وسط سهل خصب متسع وأمامها أرض وعرة فيها أخوار ووهدات مخلة تسهل حمايتها ، ويمكن منها سد الطريق فى وادى النيل . وقد تمكن أمراء طيبة من اعتلاء العرش وتوحيد مصر تحت حكمهم وأسسوا الأسرة الحادية عشرة وتأسيسها نهاية الدولة القديمة وبدء الدولة الوسطى . وكان ذلك حوالى سنة ٢١٠٠ قبل الميلاد .

الفصل السادس

الحضارة المصرية فى عهد الدولة القديمة

نظام الحكم والفراعنة

ذكرنا عند الكلام على الأهرام أنها تدل دلالة واضحة على مبلغ سلطان ملوك الدولة القديمة . والواقع أن ملوك مصر تسلطوا تماما على الأموال والرقاب وبلغوا فى نظر رعيتهم مرتبة الآلهة . وعلينا الآن أن نفهم سر هذا السلطان العظيم وأن نقدّره على وجهه الحقيقى فانه من الخطأ الذائع أن نتصوّره قائما على العسف أو القوّة الحربية أو استذلال الرعية . والحقيقة أن سلطان الفراعنة قام على أسس معنوية . فهم كما رأينا كانوا بناة الوحدة الوطنية حوّلوا مصر من مجموعة إمارات الى أمة واحدة تخضع لحكومة واحدة وأصبحوا فى نظر الرعية رمز هذه الوحدة ، فى بقاء قوّتهم بقاء الوحدة التى نشرت السلام فى أرجاء القطر ومكّنت من وضع وسائل الرى والصرف ، ولولاها لما كان رخاء بل وما كانت حياة . هذا الى أن الفراعنة كانوا على رأس العبادة الدينية ولولاهم لتحللت هذه العبادة الى عناصرها المحلية وضاق أفق الفكرة الدينية لا يتعدّى الإقليم أو القرية .

وينبغى ألا نفهم أيضا من علو شأن الفراعنة الأول أنهم كانوا أناسا يعيشون بمعزل عن قومهم ، كما كان الحال فى أمم الشرق القديم بل الحقيقة أن الفراعنة الأول كانوا شديدى الاتصال بالحياة القومية فكانت أبوابهم مفتوحة لأقل الأفراد شأنا يستمعون لشكواهم ويعنون بشؤونهم . وكانوا أيضا يهتمون بموظفيهم ومن كبار الموظفين من صاهر الملوك ومنهم من سطر على جدران قبره عناية مليكه بأمور دنياه ودينه فشجعه بالعطايا وعاونه على إعداد قبره .

حكم الأقاليم

وضع الفراعنة الأول قواعد الحكم . ومما يلاحظ عليها أنهم قسموا المملكة الى نحو أربعين قسما على رأس كل قسم منها حاكم يقابل المدير الآن ، ويشرف هذا المدير على فروع الإدارة المختلفة فى إقليمه ؛ وهذه منها ما اختص بجباية

الضرائب ولم تكن فى ذلك العهد تجبى نقودا مسكوكة بل حاصلات زراعية أو صناعية ، ومنها ماقام بشؤون الرى والصرف وتسجيل الأرض الزراعية ومنها ما اختص بالمحافظة على الأمن والفصل فى الخصومات .

الحكومة المركزية

يقابل هذه الإدارات الإقليمية التى وصفناها إدارات عامة موضعها العاصمة وأهم هـذه الادارات ادارة الخزانة العامة واختصاصها تسلم الضرائب العينية التى جباها حكام الأقاليم و إيداعها فى مخازن عامة . ومن هذه الإدارات العامة أيضا إدارة القضاء فقد كان لمصر جميعها قاض أكبر، وكانت هناك قواعد قانونيـة الا أن الظاهر أن الفصل فى الخصومات فى القرى كان يجرى على حسب قواعد العـادة وأنه لم يكن فى أيدى رجال القانون . وقد احتاجت هذه الادارات الى ضروب من أهل الوظائف مهرة فى الكتابة وقد انتظموا فى رتب وطبقات وعلى رأس الجميع الوزير، ومن الوزراء من بلغ شأوا عظيما فى الدراية وحسن تصريف الأمور وضرب بسهم وافر فى الحكمة والعـلوم والفنون . ومن أشهرهم فى عهد الدولة القديمة امحوتب و پتاح حتب .

نقد نظم الحكم فى الدولة القديمة

أول ما يلاحظ على نظم الحكومة أنها كانت فى أصولهـا وفروعها فى يد موظفين وأنها تخلو خلوا يكاد يكون تاما من فكرة إشراك الرعية فى تدبير الأمر كما كان الحال فى نظم الأغريق السياسية .

ويلاحظ عليها أيضا أنها — رغم أنها تبدو قوية نافذة الكلمة — عجزت عن منع الأقاليم وأصحاب الأمر فيها عن الانفصال والخروج على الملك . فقد رأينا حاكم الإقليم يشرف على العمـل الحكومى فى إقليمه إشرافا تاما . فاذا ضعفت رقابة الحكومة — كما حدث فى عهد ضـعاف الملوك بعد الأسرة السادسة — خلا له الجو وحكم بأمره وعجزت العاصمة عن رده الى الطاعة . وكانت الفوضى التى أودت بالدولة القديمة .

القوة الحربية المصرية

وكان ممـا أدّى لهـذه النتيجة ان فراعنـة الدولة القديمة لم يهتموا بانشاء جيش وطنى خالص أمره لهم . اذ أن حضارتهم كانت حضارة سلم . وكانوا اذا قضت ضرورة عاجلة كرد غارة من غارات البـدو أو حراسة بعثة تجارية

خارج الحدود بتجريد قوة حربية جمعوا ما لدى حكام الأقاليم من رجال الحرب وأضافوا اليهم جندا مرتزقا من أهل النوبة أو اللوبيين وعهدوا بالقيادة لرجل من أهل الوظائف مثل أونا الذى أشرنا اليه عند الكلام على الأسرة الخامسة. ومتى انتهت التجريدة من أعمالها عاد كل شئ الى ما كان عليه. بذلك لم يجد ملوك مصر بعد الأسرة السادسة القوّة الحربية التى تمكنهم من كبح جماح أصحاب الأقاليم وردّهم الى حظيرة الطاعة .

الأمة

أما الأمة فكانت فى غالبيتها أمة من المزارعين . وكان فلاحوها — على عكس ما نرى الآن عندنا — لا يملكون الأرض التى يزرعون ، اذ أن ملك الفرد لأرضه فى مصر أمر جديد من مستحدثات القرن التاسع عشر. وقبل هذا القرن منذ أقدم العصور التاريخية كان ملك الأرض الزراعية فى يد الملوك بصفتهم يمثلون المجموع . ولا يرجع هذا لجشع الملوك وما اليه إنما يرجع لسبب مفهوم هو أنه لولا عناية الحاكم بالرى والصرف وتدبير توزيع الماء بالقسط لما كانت زراعة بالمرة فكان طبيعيا أن يكون للحكومة السيطرة التامة على الأرض وأن تضعف إزاء سيطرتها حقوق الأفراد ضعفا بينا .

ولكن الملوك — و إن كانوا نظريا ملاك الأرض كلها — كانوا يقطعون الأرض لكبار الزارعين أو يقفونها على المعابد وغيرها من المنشئات الدينية . وفى كل هذه الأحوال يقوم بزراعتها الفلاحون . وكى تضمن الحكومة بقاءهم فى الفلاحة حرمتهم شيئا من حرية التنقل .

يماثل الفلاحين صناع المدن . وحظ الفلاحين والصناع الفاقة: مساكنهم فى الريف وفى الحضر من اللبن المجفف فى الشمس ولا يتعدى أثاثها آنية الفخار الساذج والحصير والمقاعد الخشبية الخشنة . تكتظ بهذه المساكن أحياء الصناع فى المدن يكاد لا ينفذ اليها الهواء والشمس .

وكان زى الفريقين على نفس القلة والبساطة : يأتزر الرجل بما يستر العورة وتستر المرأة جسدها بأخشن الملابس .

إلا أنه رغم هذه الفاقة كان يغلب على فقراء مصر القديمة شيء من المرح وخفة الروح والانشراح ، تتجلى جميعا فيما وصل لعلمنا من قصصهم وما نراه على جدران القبور من رسوم الحياة المصرية .

أما الأغنياء من كبار الزارعين وأهل الوظائف الحكومية والدينية فحظهم آخر : مساكنهم أنيقة رغم اتخاذها من اللبن أو من الخشب (الأمر الذي يفسر ضياع معالم المدن المصرية القديمة) . وقد اهتموا باحاطتها بالحدائق النضرة يقضي فيها الرجل أوقات الفراغ فى مرح برىء : واهتموا أيضا بأن تكون الآنية من الفخار والمعدن والحجر جميلة ، وأتخذوا المقاعد والأسرة من الأخشاب الثمينة المطعمة ، وزخرفوا الجدران بما شاء لهم حسن الذوق من رسوم تمثل مناظر الطبيعة .

وزى الأغنياء يشبه زى الفقراء فى قلته وان كان يختلف عنه فى نفاسته : يأتزر الغنى ويحلى جيده بقلادة من الأحجار النفيسة . وفى أيام الأعياد وما يشابهها يضع على رأسه شعرا مستعارا ، وتلبس نساء الأغنياء قمصانا من الكتان الأبيض وتحلى الواحدة منهن بمختلف الحلى ، ويلهو الأغنياء بالصيد فى الصحارى وفى الأحراش .

وكانت القاعدة ألا يكون للرجل أكثر من زوجة شرعية واحدة ، وإن كان الأغنياء قد استباحوا لأنفسهم اتخاذ الجوارى . وقد عمل الحكماء على نشر الفضيلة جهد طاقتهم .

الصناعات والفنون

بينا أن الزراعة كانت أساس ثروة مصر وأن معظم أهلها كانوا يعملون فيها . فزرعوا الغلال من قمح وشعير والبقول والكروم. ومنهم من عمل فى رعى الأنعام وتربية الطيور أو فى صيد الأسماك. ولكن ما بلغه مستوى المعيشة عند الأغنياء تطلب صناعات أخرى مهمة. فبناء المعابد والقبور وصنع الآنية استلزم اشتغال جم غفير من المصريين بصناعة قطع الأحجار المختلفة فى المحاجر الواقعة فى وادى النيل نفسه كمحاجر طره أو أسوان ، أو الواقعة فى الوديان بين النيل والبحر الأحمر أو فى سيناء . وإعداد الأحجار ونحتها وصقلها استلزم صناعا بلغوا فى صناعتهم هذه شأوا بعيدا . وعمل غيرهم فى صنع الآنية من الفخار وآخرون

فى صناعات المعادن من النحاس والذهب والفضة. واشتغل آخرون بالنجارة وما اليها . وكان هناك النساجون المهرة ، وأشهر ما برعوا فيه نسج الكتان . وكذلك اشتهر أيضا صانعو الجلود والصباغون وصانعو أوراق البردى وهكذا .

ولم يجد المصريون فى موارد بلادهم كل بغيتهم من لوازم الصناعات فجهز الملوك البعثات لاستحضار ما احتاجوا اليه من المواد كأخشاب لبنان وفضة الأناضول وريش النعام والأبنوس والعاج من الأقطار الأفريقية ، وهكذا .

فكانت بذلك حركة تجارية نشيطة بين مصر والأقطار المجاورة . ولم تكن التجارة الداخلية بين المدن المصرية نفسها بأقل شأنا ، فجرت على النيل السفن تنقل الحاصلات وتنقل الفلاح — كما ينتقل الآن — يتزود من السوق القريب حاجاته . وكانت المقايضة هى الطريقة الغالبة فى التجارة . إلا أنه فى الصفقات التجارية العظيمة استعمل المصريون المسكوكات وكانت من حلق ذهبية أو نحاسية . واستعملوا أيضا الأوزان وكانت من الحجر . وعرفوا كل مستلزمات التجارة والمعاملات من دفاتر الحساب والعقود ، وهكذا . فاحتاجوا بذلك الى طائفة من الكتاب حذقوا الكتابة وبرعوا فى الحساب وقد اتخذ هؤلاء الكتاب كتابة غير الهيروغليفية هى الكتابة الهيراطيقية .

أما الفنون التى تقدمت فى أيام الدولة القديمة فأهمها فن البناء وصنع التماثيل والرسم . وأساس الفنون عندهم تأديتها لحاجات عملية ومقياس الجودة فيها قربها من محاكاة الحياة . والسر فى تقدمها عندهم حبهم للشيء الجميل ودقة ملاحظتهم .

وندرس فن البناء عندهم فى ما تركوه من مصاطب وأهرام ومعابد ، وقد ذكرنا ما تدل عليه الأهرام من تفوق المصريين فى تلك الناحية .

وذكرنا أيضا ما بلغه نحت التماثيل من أحجار شديدة الصلابة أو صفها من صحائف المعدن أو الخشب من الإتقان فى محاكاة الحياة ودقة الشعور .

وكان الرسم أهم فنون الزخرفة عندهم. وكانت رسومهم إما بارزة أو مجوفة وفى كلتا الحالتين عانى الرسامون صعوبة رسم الأجسام على السطوح فجاءت رسومهم خاطئة من هذه الناحية. إلا أنها فى تصويرها لمناظر الحياة المصرية كانت مصدرا مهما حيا لتاريخ مصر.

الأدب والعلوم

قلنا إن اهتمام المصريين بالفنون كان اهتماما عمليا. ويصدق هذا أيضا على علومهم وآدابهم. اشتغلوا بالفلك وكان ذلك لضبط السنين وحساب الأيام وبالرياضيات وكان ذلك أيضا للزومها لفنون العمارة وقياس الأرض وهكذا وبالطب وكان ذلك لصحة الأجسام. أما آدابهم فكانت تشتمل على الأدب الدينى وهو مما يلزم العبادة والتراجم وكانت مما يسطر على جدران المقابر لتقرير الحقائق وتقييد أسماء الملوك وكانت مما يأمر به الملوك لضبط الحوادث. ولا يبقى للأدب الصرف إلا القصص الشعبى والغناء والحكمة الخلقية ومن أجمل ما وصل الينا من هذه القطع المعروفة بنصائح يتاح حتب.

الدين

نظر المصريون فيما أحاط بهم من مشاهد الطبيعة كما فعل غيرهم. واكتفى عامتهم بتفسيرها بالاعتقاد بأنها مظاهر لأرواح مختلفة بعضها خير وبعضها شرير واقتنع بالتعبد لهذه الأرواح يجتذب الخير ويدفع عدوان الشرير. فكانت العبادات محلية لا تتعدى نطاق القرية أو الإقليم.

ولكن اتحاد الأمة السياسى أدى الى اتساع نطاق العبادة وتحول المعبودات المحلية الى معبودات وطنية تقوم على امتداد سلطان الملوك فأصبح للأمة المصرية آلهة مصرية مثل أوزيريس وحوريس ورع وأمون فيما بعد، وهكذا. ثم زادت الفكرة الدينية ارتقاء فأصبح بعض الآلهة فى نظر الخاصة آلهة عالية وسما الفكر المصرى الى عقيدة الوحدانية.

وقد استلزمت هذه العبادات من محلية ووطنية الطقوس المفصلة ولا بد لها من رجال منقطعين يقومون بها هم الكهنة. ولما كان العنصر الدينى فى الحياة المصرية عنصرا هاما زاد نفوذ الكهنة ازديادا كبيرا.

وأهم ما يؤثر عن الدين المصرى القديم أخذ المصريين بعقيدة البعث ثم الحساب ثم مجازاة المحسن جزاء إحسانه وعقاب المسىء جزاء إساءته . وقد ترتبت على أخذهم بهذه العقيدة السامية نتائج هامة ففضلا عما فيها من الردع والزجر أثناء الحياة فقد اعتقد المصريون بأن بعث الأرواح بعد موتها يستلزم صيانة الجسد ومن ثم كانت عنايتهم المشهودة بفن التحنيط الذى يمنع عن الأجساد البلى واتخاذ القبور المنيعة يقيها عبث العابثين .

الفصل السابع

الدولة الوسطى والحضارة المصرية فى أيامها

الأسرة الحادية عشرة

بينا عند الكلام على نهاية الدولة القديمة ما كان من ظهور أسرات قوية فى بعض المدن المصرية وما كان من اغتصاب أمرائها وظائف الدولة وأن هذا الاغتصاب كان بدء نظام الالتزام . وقد ذكرنا أيضا ظهور أمراء طيبة على غيرهم وتمكنهم من اعتلاء العرش وتوحيد مصر تحت حكمهم وأنهم أسسوا الأسرة الحادية عشرة وبها تبدأ الدولة الوسطى .

الأسرة الثانية عشرة أمنمحعت الأول

وأول ملوكها أمنمحعت الأول ، وقد جد فى إزالة الفساد الذى أوجدته الحروب الداخلية ، فأخذ يستميل اليه بعض الامراء بتوسيع إقطاعاتهم ، ويعاقب المشاغبين منهم بانتزاع أرضهم منهم . ويتفقد البلاد مهتما بمصالح الفلاحين فأقام أحجارا للحدود ، وبين لكل إنسان أرضه وأملاكه ، ووزع عليهم المياه بالعدل ، وأرسل الحملات فأدبت العدو على الحدود وخلص الفلاحين من غاراتهم ونهبهم . فحق لأمنمحعت أن يفخر فى قوله : لا جائع تحت حكمى ولا ظمآن فى أيامى .

وقد اتخذ خلفاؤه الفيوم مقرا لحكمهم .

الفيوم عاصمة المملكة أمنمحعت الثالث

وأشهر هؤلاء الخلفاء أمنمحعت الثالث وكان شديد الاهتمام بالزراعة والرى وخلف آثارا عظيمة أثارت الإعجاب وكثرت الروايات الخرافية بشأنها .

رواية هيرودوت

فمن ذلك ما رواه هيرودوت من أن الملك موريس (وهذا الملك لا ذكرى له فى النصوص المصرية) صنع فى الفيوم خزانا واسعا يجمع فيه ما يزيد من فيضان النيل ، وكان محوطا بجسر كبير يبلغ محيطه تسعين ميلا ومتصلا بالنيل بترعتين فى كل ترعة قناطر لتخزين المياه وصرفها . فاذا لم يكن الفيضان كافيا صرف من البحيرة القدر اللازم للرى ، واذا كان عاليا وخيف الغرق صرف الماء الزائد الى البحيرة وخزن فيها .

والحقيقة أنه لم يكن هناك خزان فالبحيرة التى نظرها هيرودوت هى من فيضان النيل نفسه على أرض منخفضة بطبيعتها والجسر الذى رآه هو أحد الجسور الفاصلة للحياض. أما ما عمله أمنمحعت فكان اقامة سد عند اللاهون أى فى الفجوة الواصلة وادى النيل بمنخفض الفيوم تمكنه من التصرف فى الماء الذاهب للبحيرة . وقد تمكن امنمحعت أيضا من صرف الماء من جزء عظيم من أراضى الفيوم وتحويله بذلك الى أرض زراعية خصبة . وقد زاد البطالسة بعد ذلك فى الصرف وأقطعوا الأرض هناك عساكرهم .

آثار أمنمحعت فى الفيوم وقصر اللابيرانتة

وقد أقام أمنمحعت تمثالين عظيمين كل منهما يتكون من حجر واحد وارتفاع الواحد منهما ثلاثة عشر مترا . وكانا وقد بزغت الشمس وأرسلت أشعتها نحو ماء البحيرة مثيرين لإعجاب الناظرين . وبنى معبدا عظيما عند هوارة . وهذا المعبد هو الذى وصفه هيرودوت فقد كان قائما فى أيامه وسماه قصر اللابيرانته أو قصر التيه لأن حجراته تتصل بطرقات صنعت بمهارة فائقة بحيث لو دخلها غريب لا يهتدى الى الخروج منها مالم يكن معه مرشد. وقد قال هيرودوت إنه نظرها فوجدها أعظم من شهرتها وأنها فاقت جميع مبانى اليونان وكافة عمائرهم وظن أنها كانت دارا يجتمع فيها ممثلو الأقاليم للتشاور فى أمور البلاد ، والظاهر أن أصل هذه الفكرة وجود رسوم على جدران البناء تمثل الأقاليم المصرية .

الحضارة المصرية في حكم الدولة الوسطى

أول ما نلاحظه على الحضارة أيام الدولة الوسطى اتساع تجارة مصر وعلاقاتها الخارجية .

العلاقات الخارجية

وسبب هذه العلاقات رغبة أولئك الفراعنة العظام فى الحصول على ما يلزمهم من الأحجار والأخشاب والمعادن المختلفة التى لم يجدوها فى مصر نفسها . فكثرت الرحلات الى بلاد النوبة والصحراء الغربية وطور سيناء ولبنان وسوريا والصومال . واتسع نطاق التجارة فاتصل المصريون بالحضارة العظيمة التى كان مقرها جزيرة كريد .

أثر النشاط التجارى فى الاداب

وكان لهذا النشاط أثر بين فى الآداب المصرية فورد فى قصص المصريين المتداولة وصف ممتع للأماكن النائية عن بلادهم .

قصة البحرى الغريق

من هذه القصص قصة البحرى الغريق . قال إنه ركب سفينة كبيرة فيها ١٥٠ ملاحا من نخبة المصريين الذين لهم قلب جسور كقلب الأسود ، وبينما كانوا مجدين فى الاقتراب من البر اشتدت الرياح وارتفعت الأمواج فغرقت السفينة وهلك من كان فيها . أما هو فألقته موجة على جزيرة وجد فيها مايقتات به ثم سمع صوتا كصوت الرعد ، ولاح ثعبانا يقترب منه طوله ثلاثون ذراعا ولحيته طولها ذراعان وجسمه كالذهب . وبعد محادثة قص فيها البحرى قصته أقام مع الثعبان مدة مكرما ، ثم أتت سفينة حملته الى بلاده ، واستحالت الجزيرة عند مغادرته إياها الى لجة ماء . ولا يخفى الشبه الكبير بين هذه القصة وقصص السندباد البحرى المعروفة .

قصة سنوحيت

ومن هذه القصص أيضا قصة سنوحيت وكان أحد أبناء امنمحعت الأول ، وفر عند موت أبيه الى فلسطين وأقام فيها مدة ثم عاد الى مصر بأذن من مالكها . وفى هذه القصة وصف دقيق جدا لحياة البدو المقيمين شرقى مصر .

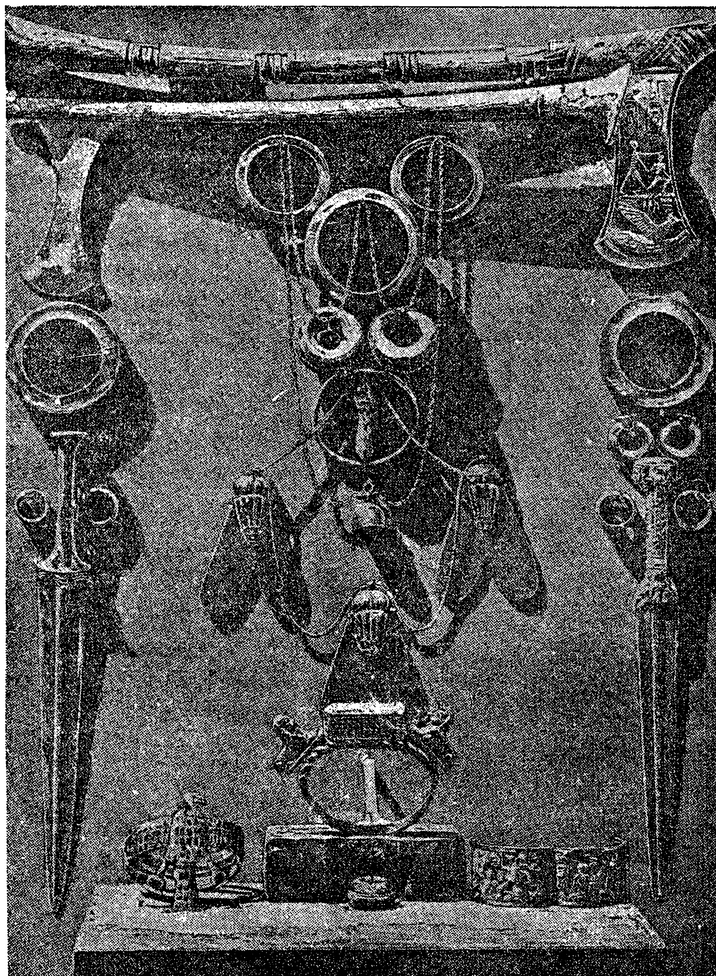
مصر والنوبة

اتجه نشاط المصريين نحو النوبة كما اتجه نحو فلسطين وسوريا ، فأخضع أسرتسن الثالث أحد ملوك الأسرة الثانية عشرة النوبيين وبطش بهم وقسا عليهم وبنى بالقرب من الشلال الثانى قلعتى سمنة وقمنة على البرين وجعلهما

الحد الجنوبى بين مصر والشعوب السوداء ، لاتتعداه سفنهم شمالا إلا إذا كانت تقل تجارة .

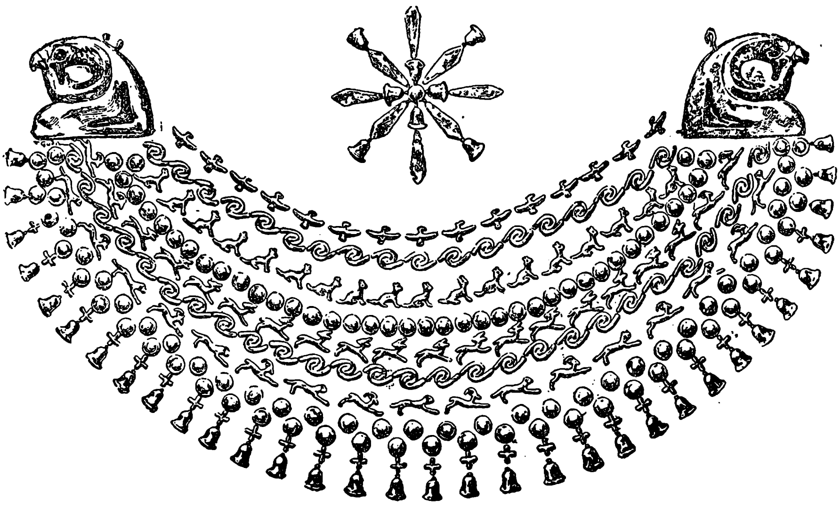
الفن المصرى

كان الفن المصرى أزهر ما كان أيام الدولة الوسطى فقد بلغ الصناع فى صنع دقيق الأشياء كالحلى مبلغا كبيرا من الإتقان .



(شكل ٩ — مثال من صناعة المعادن المصرية)

وامتازت مبانى ذلك العصر بحسن الذوق وجمال التناسب، ولم يسع رجال الفن الى ضخامة البناء وشهوقه . وهذه مقابر بنى حسن أثر خالد يفوق جمالا المبانى التى أقامتها الدولة الحديثة عند طيبة والتى لاشىء فيها الا كبرها .



(شكل ١٠ — مثال من صناعة الحلى المصرية)

الدين المصرى

وأهم ما طرأ على الدين من تغيير ظهور معبود طيبة المسمى آمون تبعا لظهور تلك المدينة السياسى وقد وحده المصريون بمعبود هليوبوليس المسمى برع .

الانحطاط بعد الأسرة الثانية عشرة

حل بمصر الانحطاط بفقدها استقلالها ووقوعها تحت حكم جماعات اسيوية هم الهكسوس أو الرعاة ولهذا الحادث شأن كبير إذ به دخل تاريخ مصر فى طور اتصال بأمم الشرق القديم .

الفصل الثامن

الهكسوس فى مصر

اغارة الهكسوس على مصر

كانت إغارة الهكسوس على مصر جزءا من حركة كبيرة واسعة النطاق أثرت فى كل أقسام الشرق القديم ، وكانت فى تلك الأقسام إذ ذاك حضارة عظيمة وعلى الأخص فى بابل والبلاد الواقعة غربى الفرات وفى جزيرة كريد وبعض جزر الأرخبيل وبعض مدن جنوبى شبه جزيرة البلقان .

وكانت إغارة الهكسوس نتيجة إغارات منشؤها سهول أوربا الوسطى وذلك أنه هجم على كريد وغيرها أقوام لغتهم آرية يعرفون صناعة الحديد فكانوا شديدى البأس . وقد أدى تغلبهم على العالم الكريدى الى الاضطراب فى العالم الاسيوى والى دفع بعض شعوبه نحو وادى النيل .

من هم الهكسوس ؟

وصف المصريون المغيرين عليهم بأنهم رعاة ولكن لا يكفى هذا الوصف للدلالة على حقيقة حالتهم فلم يكونوا متبربرين أو كلهم بدوا ، فكان منهم أقوام تعلموا الحضارة البابلية فى مواطنهم غربى الفرات ، ومنهم رجال يتكلمون لغات آرية من الأناضول .

وكان لهم تفوق حربى على المصريين إذ كانوا يستعملون آلة حربية لم يعرفها المصريون هى العجلة الحربية تجرها الخيل فكانت العجلات تنشر الاضطراب فى صفوف المشاة أمامها وتخل بنظامهم فتسبب هزيمتهم .

حكمهم مصر

كانت عاصمتهم فى شرق الدلتا ، وذلك كى يكونوا على مقربة من آسيا التى بقيت لهم بها صلات .

وما لبثوا أن تحضروا وعبدوا معبودات المصريين وبنوا معابد وقلد ملوكهم الفراعنة أى أنهم تمصروا .

وقد وجد الباحثون آثارا لأحد ملوكهم واسمه خيان فى بغداد وفى كنوسس فى كريد وليس معنى ذلك أن ملكه شمل جميع الأرجاء انما معناه انتشار نفوذه .

حرب الاستقلال ١٦٢٠ — ١٥٧٣ ق . م

على الرغم من تمصر الهكسوس لم يرض المصريون عنهم ولم يغتفروا لهم ما أصابهم منهم أول الفتح . فنشأت حركة ترمى الى إجلاء الهكسوس عن البلاد .

بدأت هذه الحركة فى الجنوب وذلك لأن الهكسوس لم يمكنهم إقامة حكمهم فيه فكانت أرض الصعيد جنوبى مدينة قفط تحت حكم أمراء مصريين كانوا زعماء حزب الاستقلال .

استمرت هذه الحرب نحوا من خمسين سنة ، وختمت باستيلاء الأمير احمس على منف وإخراج الهكسوس من مصر .

جلاء الهكسوس وقصة الخروج

جلا مع الهكسوس الاسيويون المقيمون فى مصر تحت ظلهم . وبعض المؤرخين يظن أن ذلك الجلاء أساس القصة الموجودة فى الكتب المقدسة عن إقامة بنى اسرائيل فى مصر وخروجهم منها مع موسى . وبعضهم يظن أن خروج الاسرائيليين أمر آخر لا علاقة له بجلاء الهكسوس وأنه حدث فى عهد منفتاح بن رمسيس الثانى .

تأسيس ملك مصر فى آسيا

دخل تاريخ مصر بعد استقلالها فى دور فتح عظيم : وذلك أن حرب الاستقلال بعثت فى المصريين روحا حربية طوحت بهم وبملوكهم فى الفتح طلبا لزيادة التشفى من أعدائهم بعد أن تعلموا منهم فنون الحرب وأخذوا عنهم استعمال الخيل والعجلات فى القتال ، فتعقبوهم الى مواطنهم الأولى فى آسيا .

الحالة فى غربى آسيا

وأمعن المصريون فى الفتح لما وجدوا الحالة فى آسيا مما يسهل عليهم تشييد ملك عظيم .

وذلك أن نفوذ الهكسوس الممتد من مصر إلى غربى الفرات تقلص بعد هزيمتهم فى مصر . وكانت بابل إذ ذاك تحت حكم أسرة أجنبية . ولم تكن قد قامت بعد دولة الحيثيين التى ستصبح أكبر أعداء مصر . فسهل على خلفاء احمس التغلب على فلسطين وسوريا .

الفصل التاسع

الدولة الحديثة

لم يكن تعقب المصريين للهكسوس أول عهد المصريين بفلسطين وسوريا ، ولكنه كان أول عهدهم بالأراضى الواقعة غربى الفرات . وكانت تلك الأراضى تحت حكم دويلات تتمتع برغد فى العيش ، ومن أشهرها دمشق ، وكانت إذ ذاك مركزا تجاريا كبيرا ، وقد عرف المصريون تلك الأراضى جميعا باسم نهرين لوقوعها بين نهرى الأرنت غربا والفرات شرقا .

الميتانى

وأقوى الأمم فى بلاد النهرين كانت أمة الميتانى .

المدن الفينيقية

وكانت للفينيقيين إذ ذاك مدن ممتدة على ساحل البحر الأبيض المتوسط وكانت إذ ذاك مستقلة .

الأسرة الثامنة عشرة وفتوحها تحتمس الأول

غزا تحتمس الأول مؤسس الأسرة الثامنة عشرة بلاد النهرين وعاد الى طيبة مباهيا بسعة فتحه وبوصوله حتى نهر الفرات الذى وصفه بأنه نيل منعكس أى يجرى من الشمال للجنوب .

ولكن سكان تلك البلاد لم يكونوا همجا كالنوبيين يسهل على الفراعنة ردعهم وزجرهم. فما رجع تحتمس إلى مصر إلا وقاموا على حكم مصر وتحالفوا تحت زعامة أمير قادش إحدى الامارات . واتضح للفراعنة أنه لا يمكن حكم تلك الجهات إلا إذا احتلوها بعساكرهم .

حكم حتشبسوت عصر السلام

وبعد تحتمس الأول أهمل المصريون الفتح أيام خلفه تحتمس الثانى وكان ضعيفا والملكة حتشبسوت وكانت موليـة التجارة والبناء اهتمامها . وكانت حتشبسوت امرأة عظيمة الهمة ، شاركها فى الحكم بعد تحتمس الثانى أخوها أو ابن أخيها تحتمس الثالث ، ولكن اشتراكه كان اسميا فقط فبقى خاملا طول حياتها . ولما ماتت قام بفتوح عظيمة جعلت له اسما خالدا بين عظماء الفاتحين .

تحتمس الثالث

ولم يهمل تحتمس تخليد حروبه ، فقد وصفها الكتاب بأمره على جدران معبد الكرنك . ويقول العارفون إن هذا الوصف مكتوب ببراعة ومهارة تستوقف النظر .

خرج تحتمس الثالث فى السنة الثانيـة والعشرين من حكمه [١] . وكان أعداؤه تحت قيادة أمير قادش عند مدينة مجدو وكان موقعهم حصينا ، فقد كانوا



(شكل ١١ — تحتمس الثالث فى صباه)

على ربوة تلتقى عندها الطرق وتحول دون نزول المصريين على السهول غربى الفرات . ولكن تحتمس الثالث اجتاز الربوة دون أن يشعروا به وطوق معسكرهم وانتصر عليهم انتصارا باهرا . ثم حاصر مجدو واستولى عليها وغنم منها غنائم

(١) بما فيها مدة اشتراكه مع حتشبسوت .

نفيسة تدل على تمدين تلك البلاد وغناها . ومما يذكر أنه لم يقس على أعدائه كما كان يفعل الفاتحون فى تلك الأزمان .

أنزل ذلك الانتصار الرعب فى قلب الاسيويين ، فلم يجد تحتمس فى غزوته الثانية فى العام الثانى مقاومة بل وجد تنافسا بين الاسيويين فى التزلف اليه والتقرب منه .

وتتابعت غزواته ، وفى الغزوة الخامسة استولى على مدينة ارواد الواقعة على البحر وغنم منها غنما كبيرا .

وفى الغزوة السادسة كانت خطته جديدة ، إذ نقل جيوشه بحرا إلى المدن الفينيقية ومنها سار على قادش . والجديد فى تلك الخطة هو الجمع بين استعمال البحر والبر . وفى تلك الغزوة أيضا ابتدأ سياسة جديدة هى إرسال أبناء الأمراء المغلوبين إلى مصر يتعلمون فيها وتشرب قلوبهم حب فرعون ، وعندما ينتهون من ذلك يعينهم حكاما لبلادهم تحت سيادته .

وكلما ثار ثائر أسرع تحتمس إلى تأديبه وكان آخر غزواته الغزوة السابعة عشرة فى السنة الثانية والأربعين من حكمه وفيها أخضع قادش . وفيها أرسل ملك قبرص لفرعون هدية يبعد بها عنه غضبه . وبعدها دانت له رقاب الاسيويين فلم يقم بحرب أخرى .

تنظيم الملك

كانت سياسته فى تنظيم الملك أن يترك الأمراء الوطنيين فى أماراتهم ولكن بعد أن يعين معهم موظفين مصريين يجوبون خلال الملك يجمعون الجزية ويراقبون الوطنيين ويشيرون على أمرائهم بما يحسن بهم القيام به وهؤلاء الموظفون تشد أزرهم حاميات مصرية تعسكر فى المواقع الحصينة .

وقد اتبع أيضا كما تقدم سياسة تمصير أبناء الأمراء وقد نجحت هذه السياسة نجاحا باهرا فقد تعلق كثير منهم بمصر وحكمها . وعندما ضعف أمرها فيهم وهدد الحيثيون بالحلول محلها أسف الاسيويون على زوال ملك مصر واستغاثوا بفرعون مرارا .

وعلا ذكر تحتمس الثالث علوا كبيرا وشدا به الشادون وكتب فى مدحه الشعراء وقد عثر الباحثون على قصيدة تخيل فيها الناظم المعبود آمون يخاطب تحتمس ويشيد بذكره .

امنحتب الثالث

وقد جنى خلفه امنحتب الثالث ثمار الجد الذى بذله سلفه . فكان حكمه فخما تجلت فيه أبهة فرعون وامتد ملكه ١٦٠ ميلا جنوبى وادى حلفا حيث بنى معبدا فخما عند صليب وعبده فيه النوبيون .



(شكل ١٢ — أمنحتب الثالث)

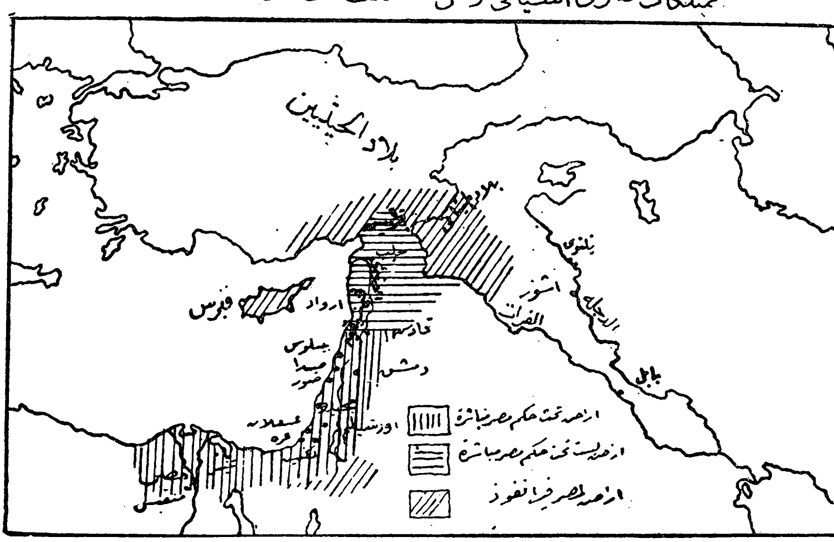
الفصل العاشر

أمنحتب الثالث واخناتون

آثار الفتوح

صارت طيبة مقر هـذا الملك العظيم . وقد غيرت الفتوح الآراء السائدة حتى ذلك الوقت ، فعرف المصريون أن هناك أمما كثيرة غيرهم وأن العالم ليس مصر فقط ، وأن ماحولها ليس أرضا مجهولة تسكنها الشياطين ، وأصبحوا يرون فى فرعون قائدهم الذى يسيرون إلى النصر تحت لوائه .

ممتلكات مصر فى آسيا فى زمن امنحتب الثالث



سلطة فرعون

وكانت الادارة كلها فى يد فرعون يدير شؤونها بوساطة وزيرين أحدهما للشمال ومقره منف والآخر للجنوب ومقره طيبة ، ولم يطلق أيديهما فى مال الدولة بل جعل له موظفا خاصا .

ولم يسمح فراعنة الأسرة الثامنة عشرة للكهنة بالتدخل فى أمور السياسة إلا أنه عند ماخرج أحدهم وهو أخناتون على معتقدات آبائه وأغضب الشعب

ذلك ، اضطر الفراعنة الذين أتوا بعد أخناتون إلى استرضاء رجال الدين ، فزادوا فى امتيازاتهم .

ارتفاع شأن آمون

وقد أدت عظمة طيبة إلى ارتفاع شأن معبودها آمون فأصبح معبود الملك كله . ولا بد أن يكون ذلك قد أثار شيئا من الحسد فى نفوس كهنة المعبودات الأخرى ، وعلى الأخص كهنة رع ، وربما أدى ذلك إلى كيدهم لآمون وإلى قيام أخناتون بثورته الدينية .

فخامة الدولة الحديثة

تبودلت التجارة فى ملك مصر الواسع وزادت مصر فى الغنى والرفاهية بفضل اتساع التجارة واستتباب الأمن على يد ملوك أقوياء وموظفين شاعرين بأن عين فرعون ترقبهم ، وبفضل الغنائم التى غنموها فى آسيا والأموال التى جبوها من أهلها .

طيبة فى عهد امنحتب الثالث

وقد تجلت تلك الفخامة فى حكم امنحتب الثالث الذى زاد فى جمال طيبة ، فشيد متنزها على ضفاف بحيرة فى البر الغربى .

تمثالا ممنون

وبنى معبدا هائلا هدمه منفتاح ابن رمسيس الثانى ولم يبق منه إلا التمثالان المعروفان بتمثالى ممنون .

بدء الاضمحلال

ظهرت علامات الاضمحلال فى حكم امنحتب نفسه ، وربما فسر الاضمحلال كثرة المال والانهماك فى الترف . والظاهر أن الحضارة القديمة كان يصيبها الاضمحلال إذ استنام الناس إلى السلم . وليس معنى ذلك أن الحرب أمر ضرورى للعالم الحديث ، فالحضارة الحاضرة لايعوزها الباعث القوى للعمل العقلى وغير العقلى فى ظلال السلم .

ومما عجل الاضمحلال وأدى إلى تمزيق ذلك الملك العريض الثورة الدينية التى قام بها أخناتون .

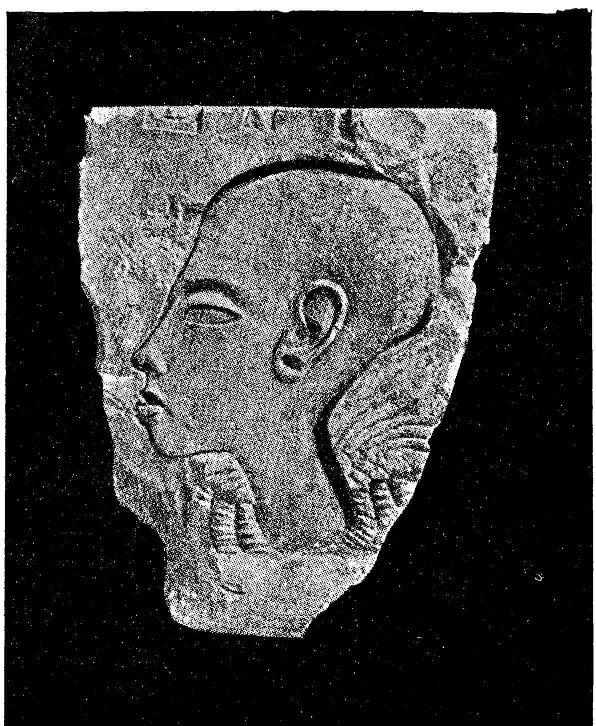
أخناتون وثورته الدينية

كان أخناتون أو امنحتب الرابع ابن امنحتب الثالث وزوجته تى . ولم تكن تى هذه من أصل مصرى خالص فقد كان أبوها اسيويا ، وكان أخناتون غريبا فى صفاته لم تر مصر قبله رجلا أكثر تغافلا عن كل مالا علاقة له بنزعات عقله أو أكثر إهمالا لواجبات الملوك ، حتى لقد يعرض للإنسان الشك فى استكماله قواه العقلية .

وفى السنة السادسة من حكمه — ولما يزد سنه عن الخامسة عشرة — نشر رأيه ببطلان المعبودات جميعها بما فيها آمون ، وأعلن أنه ينبغى ألا تعبد إلا القوة السماوية التى تمثل للناس فى الشمس وسماها آتون . وكان دينه هذا وحدانية خالصة .

وربما كان لأصل أمه الأسيوى بعض التأثير فى رأى أخناتون الدينى . والثابت أن تقديس الشمس لم يكن أمرا جديدا . ومن المحتمل أن كهنة رع كانت لهم يد فى تشجيع هذا التقديس كيدا لكهنة آمون .

لم يكن لأخناتون من الحكمة السياسية مايجعله متريثا فى أمر هام كأمر العبادات : فنشر رأيه فى البلاد وبعد أن كان اسمه الأول امنحتب اتخذ لنفسه



(شكل ١٣ — أخناتون "من رسم على حجر فى المتحف البريطانى")

اسم أخناتون وغادر طيبة مقر آمون وجعل عاصمته بالقرب من أسيوط حيث تل العمارنة الان .

أثارت تلك الأعمال استياء عاما ، وأغضبت الكهنة والعامة ، ونفرت رجال السياسة والحرب الذين قدروا وخامة العواقب ، ورأوا أن الملك الذى شادوه بدمائهم يلهو به مفتون على العرش .

ووصلت الأخبار إلى آسيا وعلم الأسيويون أصدقاء مصر أن فرعون قد ابتدع بدعة دينية ، وأنه لزم مدينته الجديدة يتعبد فيها ولا يخرج منها للدفاع عن تراث آبائه .

ومما يدل على ما كان من شدة الشكيمة لملوك الدولة الحديثة أن الناس على الرغم من استيائهم لم يعصوا أخناتون جهارا .

آثار الثورة فى الأدب والفن

كل ذلك وأخناتون فى مدينته ينظم الشعر مسبحا لآتون . وقد حملت العصور الينا قصائده ووجد المؤرخون اتفاقا كبيرا بين تلك القصائد والشعر الدينى الاسرائيلى فى اللفظ والمعنى .

وكان لثورته أيضا أثر كبير فى الفن : فكما أن أخناتون نبذ القديم فى الدين وتوخى الحرية فى الاعتقاد كذلك رجال الفن فى عصره نبذوا القواعد القديمة وقصدوا الى رسم الأشياء كما هى ، حتى انهم فى تصويرهم لأخناتون نفسه لم يحاولوا اخفاء عيوبه الخلقية ، كما يرى ذلك فى تمثال لأخناتون كشفوا عنه حديثا .

الرجوع الى الدين القديم

أختلت الأمور من جراء الثورة ، ولم تثبت دعائم الدين الجديد ، فما مات أخناتون فى السنة الثامنة عشرة من حكمه الا وقد رجعت الحال الى ما كانت عليه اذ ليس من السهل على أى حاكم ولو كان قويا كفرعون أن يرغم شعبا بأسره عن التخلى عن معتقدات آبائه ، حتى ولو حرم عليه ذكر المعبودات القديمة جهارا .

توت عنخ آمون

لم يكن لأخناتون ولد يخلفه فتولى بعده زوج ابنته توت عنخ آمون وكان من المتشيعين للدين الجديد . ولكنه تحول الى عبادة آمون بعد توليته الملك ،

وقد انصرف هو ومن خلفه الى ازالة سـوء الأثر الذى تركته ثورة أخناتون بارضاء الكهنة بكل وسيلة . وقد اكسبهم ذلك فيما بعد نفوذا سياسيا لم يكن لهم فى الأيام الأولى للدولة الحديثة .

وقد طبقت شهرة توت عنخ آمون الآفاق بعد فتح قبره فى أيامنا هذه والعثور على نفائس كثيرة فيه . ولكن لا سبيل الآن للحكم عما اذا كانت الفائدة التى يستفيدها علم التاريخ تتناسب مع الاهتمام الشديد الذى أثاره العثور على قـبر توت عنخ آمون .

الأسرة التاسعة عشرة

أسسها رمسيس الأول والظـاهر أنها كانت من الشمال ولكنها حكمت فى طيبة .

سيتى الأول

ومن ملوكها المهمين "سيتى" وقد أراد اعادة ما فقدته مصر من أملاكها الاسيوية أيام أخناتون . فأوقعه ذلك فى حروب مع الحيثيين ، وهم قوم من آسيا الصغرى نشروا دولتهم جنوبيها نحو فلسطين . وبتلك الحروب بدأ ملك مصر فى آسيا للمرة الثانية . وبها أيضا اضطر ملوك الاسرة الى الإقامة فى الدلتا مع تشييد العمائر فى طيبة وغيرها من مدن الصعيد . فكأننا نرى فى ذلك عودا لانقسام مصر قسمين عظيمين ، يستتر هذا الانقسام فى أوقات القوة وينكشف عند الضعف .

رمسيس الثانى

حكم بعد سيتى وكان اذ ذاك فى الثـامنة عشرة وقد طال حكمه كثيرا . والظاهر أن هذا الطول أدى الى اكتساب رمسيس شهرة كبيرة ، واذا قرناه بتحتمس الثالث أو أمنمحعت الثالث نجـد أن تلك الشهرة أكبر ممـا يستحق ، والثابت أنه عمل على تمجيد نفسه بكل الوسائل : فبنى معبدا كبيرا هو الرامسيوم ، وهو معبد هائل لا يدل على شىء من سلامة الذوق ووصف على جدرانه حروبه مع الحيثيين .

الحروب الحيثية

بدأت هذه الحروب فى السنة الخامسة من حكمه فى عام ١٢٩٦ واستمرت خمسة عشر عاما استنفدت فيها قوى مصر وسببت ضعفها .

مصر آخر أيام الدولة الحديثة

فكانت عظمة مصر ظاهرية فقط ، صحبها اضمحلال فى الفن وازدياد فى هجرة الأجانب من يونان واسيويين وليبيين اليها واعتماد الفراعنة عليهم فى الحرب .

ودخلت اللغة كلمات أجنبية ، وساد الكهنة حتى صار منهم فراعنة .

الفصل الحادى عشر

الحيثيون ومصر

الحيثيون فى آسيا

آسيا الصغرى أرض مستطيلة الشكل تتصل بآسيا فى جنوبيها الشرقى ويحيط البحر بها من ثلاث جهات . وهى هضبة مرتفعة تطوقها سلاسل من الجبال المرتفعة وتحف بالجبال سهول ضيقة على سواحل البحار . وفى الجزء الشمالى الغربى ممر قطعه الماء الجارى يصل بين البحر وقلب الهضبة . ومنه دخلها المغيرون من أوربا ، وفيه تسير الآن سكة حديد بغداد .

ومعظم الهضبة صالح للرى والزرع ، والجبال موفورة المعادن وهى أيضا سد يحول دون التوغل فى الهضبة — فيما عدا الجزء الشمالى الغربى — فموارد آسيا الصغرى اذن تكفل قيام دولة مستقلة .

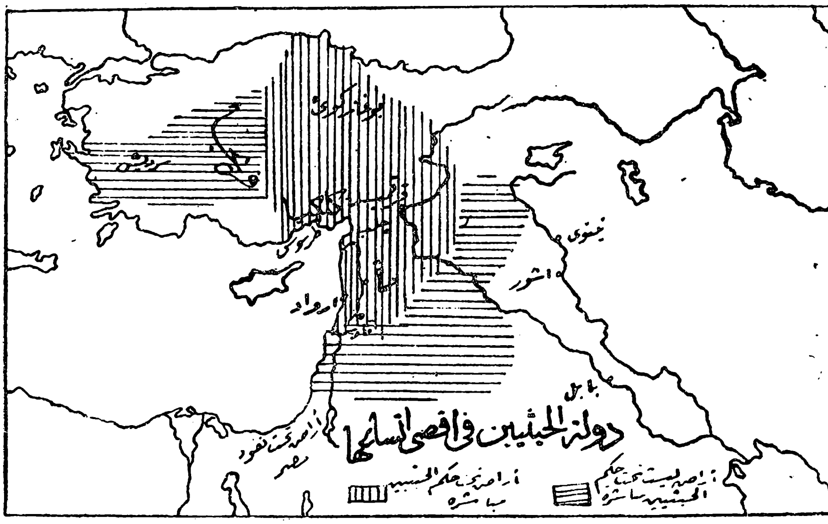
وقد كشفوا فى الأيام الأخيرة عن آثار بمدينة بوغازكوى تدل على وجود دولة كبيرة بآسيا الصغرى ، دولة اختلط تاريخها بتاريخ مصر والشرق القديم هى دولة الحيثيين .

والحيثيون من الجنس الالپي يظنون أنهم يشبهون الأرمن الحاليين ، رعاة يميلون للقتال . وكانوا فى أول أمرهم قبائل متحالفة تحت زعامة ملك يقيم فى بوغاز كوى .

وقد أخذت تلك القبائل تغير على بلاد النهرين ، ثم أخذت تحاول فتح تلك البلاد فتحا منظما ، ومن ثم اشتبكت بمصر وبالشرق القديم .

الموقف بعد موت امنحتب الثالث

استفاد الحيثيون من الاختلال الذى أثارته ثورة أخناتون فانقضوا على بلاد الميتانى ، وقد تقدم أنهم كانوا يقيمون غربى الفرات ، ففقدت مصر من جراء ذلك ملكها فى سوريا وفينيقيا ، وتمكن بنو اسرائيل من الاستقلال فى فلسطين ، وكان فى ذلك تمهيد لملكهم لها بعد .



وعقد حورمحب الذى خلف توت عنخ آمون على العرش مع ملك الحيثيين معاهدة اعترف فيها بما حدث ، أى بامتلاك الحيثيين لبلاد النهرين وبامتلاك مصر لفينيقيا وفلسطين أن تمكنت من اخضاع أهلهما لها .

الحالة أيام سيتى الأول

نجح "سيتى" فى ذلك الإخضاع ، وبذلك التصقت الأملاك المصرية بالأملاك الحيثية وتقاتل المصريون والحيثيون. وانتصر المصريون وعقدوا مع خصومهم معاهدة على نمط المعاهدة الأولى .

رمسيس الثانى

ولما تولى رمسيس نقض تلك المعاهدة — ولا عجب فى ذلك فانه كان شابا يغلب عليه الزهو — وبدأت الحروب .

عبأ رمسيس جيوشه تعبئة جديدة فجعلها أربع كتائب سمى كل واحدة منها باسم معبود من أربعة : آمون ، ورع ، وبتاح ، وست .

وكان المصريون أقل عددا من الحيثيين ولكنهم كانوا أوفر نظاما. وكان ملكهم فتى فى عنفوان القوة على حين كان ملك الحيثيين شيخا أضناه الحكم قائدا محنكا ، ولكن تعوزه حدة الشباب والإقدام .

أغار رمسيس على سوريا ، وقـد تمكن الحيثيون أول الحرب من القيام بخدعة حربية : فأوهموا رمسيس أنهم بالقرب من حلب فتقدم بلاحيطة نحو قادش ، فدهموه ولم يكونوا قد ذهبوا بعيدا وحالوا بينه وبين معسكره ، فشق لنفسه ممرا وسط صفوفهم وهزمهم وشتتهم .

بنتاؤر الشاعر

الا أنه على الرغم من انتصاره أخذ الجهد منـه مأخذه فرجع الى مصر دون أن يستولى على قادش ولكنه بالغ فى وصف نصره على جدران المعابد نظما ونثرا ومعظم النظم منسوب الى رجل اسمه بنتورت أو بنتاؤر .

المعاهدة المصرية الحيثية ١٢٧٩ ق.م

وتجددت الحرب الى أن سئمت الأمتان القتال ، فعقدتا معاهدة فى عام ١٢٧٩ ق . م نلاحظ عليهـا حسن تبويبها وتساوى الفريقين فيها وتجديد المعاهدات القديمة .

تقدم العلاقات الدولية

وفى سنة ١٢٦٦ ق.م تزوج رمسيس بنت ملك الحيثيين وأحضرها أبوها الى مصر . وكان ذلك أمرا جديدا : فلم يكن من عادة الملوك اذ ذاك أن يتقابلوا فى ود وصداقـة . ومن المحتمل أن يكون رمسيس قد رد الزيارة ، وأن لم يفعل فانه جامل الحيثيين بأن أرسـل لهم تمثال المعبودة خنسو لكى تشفى بنت الملك من داء ألم بها . وقد أرسلت بابل طبيبا وساحرا للمساعدة فى ذلك . ذلك كله يدل على حصول أولئك الأقوام على جانب كبـير من التمدين وعلى توثق العلاقات الدولية اذ ذاك .

موت رمسيس ١٢٣٤ ق.م. وتولى منفتاح

مات رمسيس عام ١٢٣٤ ق . م بعد حكم طويل وتولى ابنه منفتاح وقد جاوز سن الشباب .

وفى أيامه خرج عن طاعته أهل فلسطين فغزاهم وبالغ فى تأديبهم ولكن كانت علاقاته بالحيثيين ودية ، فعندما اجتاحت بلادهم مجاعة أرسـل لهم من مصر غلالا .

وفى عهده ايضا أغار على الدلتا الليبيون وأقوام مختلفة من جزر البحر الأبيض المتوسط وسواحله ولكنه صدهم وأجلاهم .

الأسرة العشرون رمسيس الثالث

ولكنهم أعادوا الكرة مرتين فى عهد خلفه رمسيس الثالث من ملوك الأسرة العشرين . وقد هزمهم فرعون هزيمة ساحقة فى البر والبحر . وقد سكن أقوام منهم بعد الهزيمة غربى فلسطين وهم الفلسطينيون ومن اسمهم أخذت فلسطين اسمها .

زوال ملك الحيثيين

ولم تكن هذه الإغارات مقصورة على مصر بل شملت بلاد الحيثيين وسببت تمزيق ملكهم ، وقد قضى الآشوريون بعد على ما بقى منه عام ١١٠٧ ق . م .

سياسة رمسيس الثالث الداخلية

قلد رمسيس الثالث رمسيس الثانى فى كل شىء. ولم يكن ذلك عن غرور أو ضيق عقل ، انما كان قصده أن يبعث فى المصريين ذكرى انتصارهم الحربى و يوقظ أمانيهم ، واتجهت سياسته أيضا الى تنمية موارد الثروة والبناء .

اضمحلال مصر

ولم تنجح هذه السياسة الا نجاحا مؤقتا ، فالأمم لا يكفيها البكاء على ماضيها ولا تنفعها ذكرى الملك العريض اذا أعوزتها الصفات التى فى أجدادها .

فراعنة من الكهنة

وكان خلفاء رمسيس ضعافا ، يلعب بهم الكهنة ، واستفحل أمر هؤلاء الى أن استقلوا بالملك ، ولم يقف الكهنة الفراعنة موقفا مشرفا ، فقد بلغ من ضعفهم أن حاولوا نيل الحظوة لدى الآشوريين بتقديم الهدايا ، كأن مصر قبرص أو كريد تتزلف الى تحتمس الثالث .

الفصل الثانى عشر

الحضارة المصرية فى عهد الدولة الحديثة

تمهيد
الفروق بين الحضارة المصرية فى عهد الحديثة والحضارة فى عهدى الدولتين القديمة والوسطى

تختلف حضارة المصريين فى عهد الدولة الحديثة عن حضارتهم فى عهدى الدولة القديمة والدولة الوسطى فى أمور مهمة :

من هذه الأمور أن الصفة الحربية غلبت على الدولة المصرية فأصبحت لا تكتفى بادارة شـؤون البلاد والاقتصار فى العلاقات الخارجية على حفظ الحدود وتأمين المواصلات للتجارة بل أخذت تبنى ملكا واسعا فى آسيا وفى إفريقية وتهتم اهتماما كبيرا بسياسة هذا الملك وأحوال أهليه وعلاقاتهم بغيرهم من الأمم المجاورة .

ومن أوجه الاختلاف بين هذه الحضارات ظهور طائفة الجند متميزة بنفسها عن غيرهـا من الطوائف . فأصبحت الجنـدية مهنة تجتذب أبناء الطبقة الوسطى يعد لهـا من يختارها أعدادا خاصا ويقضى فى سلكها عمره . وقد عرفنا أنه أيام الدولتين السابقتين كانت الحال على عكس هـذا . اذ كانت الحرب أمرا استثنائيا فى حياة الدولة .

ومن أوجه الاختلاف أيضا اتساع الأفق المصرى فزاد اختلاط المصريين بغيرهم من الناس وكان لهذا الاختلاط أثره فى العادات والأذواق والمعتقدات الدينية . ومن الفروق العميقة أيضا ما سنشرحه بعد قليل مما حل بنظم الحكم من التغيير تبعا لظروف الدولة الحديثة .

تفسير أسباب الاختلاف

بينا فى الفصول السابقة عن الظروف التى قامت فيها الدولة الحديثة . فذكرنا قيام أمراء طيبة يناوشون الهكسوس ونجاحهم التام فى إجلائهم عن أرض الوطن وفى توحيد مصر كلها تحت امارتهم . ويجب أن نشير هنا الى أن هذا الانتصار لم يكن على الهكسوس وحدهم . بل إنه كان على أشراف الأقاليم أيضا فلم يعد فى طاقتهم اسـتعادة ما كان لهم من الحقوق أيام عهد الالتزام . وسادت بذلك سلطة الملك كل السلطات .

ملوك الدولة الحديثة

وقد عرفنا أن ملوك مصر المستقلة لم يكتفوا باجلاء الهكسوس بل تعقبوهم الى آسيا، ومن ثم استمرأ هؤلاء الملوك حياة الغلاب والفتح . وقد سلك هذه الخطة منهم ملك بعد ملك، وكان الانتصار فى الحرب وتدويخ الممالك أجمل ما يذكره الواحد منهم عن نفسه . وصار للملك جيش قائم وارتقى فن الحرب فعرف المصريون كيفية تعبئة الجيوش الى كتائب، وميزوا بين القلب والميمنة والميسرة ونوعوا الأسلحة ومهروا فى رمى النبال وعنوا أشد عناية بالخيل وصنع العجلات الحربية، وصار للملك حرسه وقواده وغلبت الأبهة الحربيـة على مواكبه ومواسمه . وصار يربى أبناءه التربية العسكرية بالإضافة الى تدريبهم على الحكم .

نظم الحكم

ويباشر الملوك الحكم بواسطة وزرائهم. وقد أدى اتساع الدولة الى تعيين وزيرين يقيم أحدهما فى طيبة ويتولى إدارة الأقاليم جنوبى أسيوط ويقيم الثانى فى هليوبوليس لادارة بقية المملكة .

وقد قسمت مصر فى عهـد تلك الدولة الى ما يزيد عن خمسين قسما وانتشر الموظفون فى هذه الأقسام يضبطون الأمن ويجمعون أموال الحكومة ويعنون بشؤون الرعية .

وكان تحصيل الأموال والتدقيق فى ضبط الدخل والخرج من أهم ماتعنى به الحكومة حتى انهم كانوا يقـدمون للملك تقريرا شهريا مفصلا عن حساب الأموال الرسمية .

وقد دونت فى عهد هذه الدولة أيضا القوانين الجنائية والمدنية الا أن هذه المجموعات المدونة لم تصل لعصرنا الحاضر . وقد ثبت فى التـاريخ احترام الفراعنة لسلطان القانون . فقـد ورد ذكر مؤامرة على حياة فرعون وأنه لم يقتص من الجناة بنفسه بل سلمهم لمحكمة خاصة حققت التهمة تحقيقا نزيها جرت فيه على القواعد القانونية .

الأمة

بقيت الزراعة والصناعات أهم مايعمل فيه السواد الأعظم من النـاس وحظ الفلاحين والصناع من بؤس العيش أو رغده حظ أجدادهم : الأول

يعملون فى أرض الملك أو أرض المعابد أو الكبراء على حال قريبة من حال الرقيق، والأخر تكتظ بهم أحياء المدن وأكثرهم شبه مسخر فى لوازم الملك والكبراء .

وهؤلاء الكبراء هم ممن بلغ الرتب العسكرية العالية أو ولى وظائف الحكم المهمة . وكان الكهنة أشد الطوائف اتحادا وتماسكا وقد انتظم أمرهم جميعا تحت رياسة الكاهن الأعظم لمعبد آمون فى طيبة بسبب ارتقاء هذا المعبود على سائر المعبودات . وقد زاد نفوذ الكهنة بعد أن حاول أخناتون هدم العبادة الأمونية كما تقدم ، وقد عرفنا ما كان من اغتصابهم لعرش مصر نفسه بعد عصر الرعامسة .

الدين والأخلاق

حلت فى الدين المصرى القديم فى هذا العهد نزعة نحو الوحدانية رأينا صداها فى أيام اخناتون . ولولا ما كان من قلة ثريته فى نشر آرائه وأخذه أنصار القديم بالعنف، وما أحاط به حركته من إهمال أمر المملكة لصح أن يكون لها مصير آخر. وقد تلتها كما تقدم القول حركة رجعية زادت فى تمسك الناس بمعتقدات آبائهم .

ومن أهم مايؤثر عما خلفته الحياة الدينية لهذا العصر مجموعة الطلاسم والتعاويذ التى كانوا يودعونها تابوت الميت والتى نعرفها الآن باسم كتاب الموتى وبالرغم من أن المؤرخين يجدون صعوبة فى فهم كل محتويات هذا الكتاب فقد استدلوا منه على الكثير من عقائد المصريين وأخلاقهم .

مثال ذلك ماتنطق به روح الميت يوم الحساب مناجية المعبود أوزيريس :
”لم أغش الناس ولم أعنف أرملة، ولم أكذب فى مجلس، ولم أعرف الكذب ولم أفعل شيئا محرما ولم ألزم رئيسا أن يؤدى عملا غير مافرض عليه... ومافعلت شيئا يبغض الآلهة، وما أسأت خادما لدى سيده وماجوعت أحدا وماأبكيت إنسانا، ولم أقتل، ولم آمر بالقتل ظلما، وما اكتسبت مالا حراما ومابخست المكيال وما سرقت بأى أصبع من راحة الكف ولم أتعد جورا على الحقول... ومامنعت الماء من آنية ،وما قطعت ترعة عن جريانها... فأنا طاهرة أنا طاهرة أنا طاهرة “.

العلوم

وقد بقيت العلوم عند المصريين من طب وفلك و رياضيات وغيرها محتفظة بنزعتها العملية التى لاحظناها عند الكلام على العلوم فى عهد الدولة القديمة .

الأدب

أما الأدب فما وصلنا منه لايبلغ من وجهة نظر الذوق الحالى مابلغته حكم بتاح حتب أو قصص الدولة الوسطى وأهم آثاره المنظومات المنسوبة لبنتاؤر .

الباب الثانى

دول الشرق القديم وعلاقات مصر بها

الفصل الأول

أرض بابل وأشور

بابل دولة قديمة قامت فى الأرض بين الفرات والدجلة .

الفرات

يجرى الفرات فى ثلاث مناطق : الأولى أرض جبلية ، والثانية سهل لا شجر فيه ، والثالثة تنتهى عند الخليج الفارسى وتتكون من رواسب النهر .

الدجلة

ويمر الدجلة أيضا فى ثلاث مناطق كمناطق الفرات. وقد سكن الأشوريون فى الجزء الجبلى من مجراه . وفى خط عرض بغداد يقترب الدجلة من الفرات فلا تزيد المسافة بينهما على خمسة وثلاثين ميلا ثم يبتعدان .

ويفيض الفرات والدجلة بغتة عند ما يذوب الجليد فى الجبال (بين شهرى مارس ومايو) ويرتفع النهران ارتفاعا كبيرا يجرف السدود التى يقيمها الناس لحماية الأرض . هذا إلى انهما يجلبان كمية كبيرة من الطين ويرتفع أسفلهما ارتفاعا سريعا وترسب منهما رواسب سميكة ، فكان مصباهما أيام الاسكندر الأكبر يبعد إحداهما عن الآخر والآن يلتقيان عند البصرة على بعد ٣٠٠ ميل من البحر . كل ذلك جعل مسائل الرى فى أراضى بابل أدق منها فى مصر كثيرا .

الأرض غربى الفرات

والأرض غربى الفرات إما مراعى وأما صحارى جرداء متصلة بصحارى شبه جزيرة العرب ، وكان لأهلها تأثير كبير فى تاريخ البلاد الزراعية القريبة منها .

الأرض شرق الدجلة

والأرض شرقى الدجلة جبلية مرتفعة متصلة بهضبة إيران . وهى عبارة عن سلاسل من الجبال وفيها وديان تصلح لسكنى الانسان ، ولكنها منعزل بعضها عن بعض . وفيها أيضا بحيرات كبيرة مثل فان وأرميا فى الشمال وشيراز فى الجنوب وفى بعض تلك الوديان نشأ الفرس والميديون .

الأرض شرق الخليج الفارسى بلاد عيلام

وترتفع الأرض شرقى الخليج الفارسى ارتفاعا كبيرا وتصد الرياح وتهطل على سفوحها الأمطار فصارت أرضا كثيرة الغابات ، وصارت يطمح فى امتلاكها أهل السهول القليلة الشجر ، وهذه هى بلاد عيلام :

موازنة بين مصر وبابل

(١) اختلاف اتجاه الأنهار : ينبع النيل فى الجنوب ويتجه شمالا فصار الجزء الشمالى من واديه (مصر) فى منطقة مناخها معتدل . وخلا ذلك الجزء أيضا من الجنادل فيسير الماء هادئا بين أسوان والبحر ، ثم لا يحمل الى ذلك الجزء الشمالى من مجراه الا ما خف من الطين الذى لا يعوق الملاحة على عكس الفرات الذى يصل الى الدلتا ولم تكن قد رسبت منه الرواسب الثقيلة بعد فتعوق الملاحة عند الدلتا وتسبب طغيان الماء على الارض .

تكثر لذلك فى خرافات البابليين قصص لطوفان عظيم خرب العالم كله وبينما المصريون القدماء يتخيلون الشر ظلاما و بردا كان البابليون يرمزون له بحيوان مخيف يرسل الماء مدرارا .

(٢) قامت المدنية المصرية فى الوادى والبابلية والأشورية فى الدلتا .

(٣) اقتراب المدن البابلية بعضها من بعض وتباعد المدن المصرية ممتدة على طول النهر كله .

(٤) بابل بلاد لا أحجار فيها على عكس مصر تماما . وكان لهذا أثر بين فى حضارتها ، فالطين ولو جفف تماما لا يصلح لعمل التماثيل ولا يمكن الرسم عليه . فالفن البابلى أعوزته المادة التى عرف المصريون والاغريق كيف يخلدون بها فنهم .

وقد استعمل البابليون الطين المجفف استعمالا غير مألوف ، فقد كانوا يكتبون عليه .

(٥) وبابل أيضا أقل من مصر مناعة ؛ فتسكن الصحارى غربيها قبائل البدو الرعاة يدفعهم فقرهم نحو الأراضى الزراعية .

أما أساس الحضارة فى الدولتين فهو واحد وهو خصب الأرض وتهيء الفراغ اللازم للابتكار والتفكير . وتتوقف الحضارة فى كلتيهما على حسن تدبير الرى وعدم الإفراط أو التفريط فى استعمال الماء .

علاقات بابل الخارجية

أثرت فى تاريخ بابل علاقاتها بالبدو وبسكان عيلام وبالأشوريين .

أما عن البدو فقد كانت طبيعة بلادهم هى الدافعة لهم على الإغارات أو على التجارة .

ونقل التجارة مهنة قديمة جدا فى الصحارى اذ الصحارى تشبه البحار فى كونها تصل بين أقاليم مختلفة ، وكما تقوم المدن التجارية على سواحل البحار ، فانها تقوم أيضا عند اتصال الصحارى بالأقاليم الزراعية والصناعية أو فى الواحات مثال ذلك دمشق وبخارى وبربر .

وقد أثر البدو سكان الصحارى بالغزو والإغارات فى تاريخ البابليين تأثيرا كبيرا فجعلوا لغتهم سامية مثلا .

أما عن الأشوريين فقد نشأت دولتهم فى الجزء الجبلى من نهر دجلة ، وهو جزء متسع تكثر فيه النهيرات ، ويقع على بعد من بابل فتمكن الأشوريين من إنشاء دولتهم بلا تدخل منها ، ولكن لم يكن ذلك البعد بكاف لمنع الأشوريين من تهديد بابل عند ضعفها .

الفصل الثانى

بابل وأشـــور

مر تاريخ الحضارة البابلية فى أربعة أدوار متميزة :

الدور الاول (٣٠٠٠ — ٢٢٠٠ ق . م)

يعاصر هـذا الدور عهد بناة الأهرام فى مصر وينتهى عند ما أسس حمورابى ملك بابل فى عام ٢١٠٠ ق . م

وفى ذلك الدور لم تكن الأرض خاضعة لملك واحد بل كانت فيها مدن مستقلة بعضها عن بعض كثيرة التقاتل . ويعرف هذا العهد بعهد المدنية السومرية من سومر وهو اسم يطلق على جزء كبير من تلك البلاد .

المدنية السومرية والزراعة

وليس للمؤرخين علم يقـين بجنس السومريين والظاهر أنهم كانوا بيض الألوان جففوا المستنقعات وبنوا المدن وعرفوا طرق الرى والزراعة ورعوا الغنم والمـاعز . وربما كانوا أول من استعمل العجلات تجرها الحمير للنقل. وكانوا كالمصريين إذ ذاك لايعرفون الخيل ولهم خبرة باستعمال المعادن وصنع الأوانى النحاسية وربما وصل العلم بها اليهم من وادى النيل .

الكتابة

كانوا يكتبون بآلة حادة على الطين قبل تجفيفه فصارت كتابتهم تعرف بالخط المسمارى .

الشهور

وكانوا يحسبون السنة مكونة من اثنى عشر شهرا قمـريا . وقد تعلم ذلك عنهم ذلك الاسرائيليون والفرس .

نيبور

وقد اتخذوا مدينة نيبور مركز عبادتهم وبنوا فيها معبدا كبيرا يزعم بعض المؤرخين أنه برج بابل المشهور فى الأسـاطير . وقد كشف العلماء عن آثار نيبور عام ١٨٨٩ وزاد علمهم بتاريخ السومريين بذلك زيادة كبيرة .

الأكاديون وسرجون الاول

وحول عام ٣٠٠٠ ق.م نزل فى أرض أكاد شمالى سومر البدو الساكنون غربى الفرات وقام بينهم وبين السومريين كفاح شـــديد انتهى بانتصار

الأكاديين على يد قائدهم سرجون وكان ذلك حول عام ٢٧٥٠ ق.م ثم كوّن سرجون من فتوحه ملكا واحدا وحكم خلفاؤه الى عام ٢٢٠٠ ق.م. واختلط الشعبان وصار شعبا واحدا متحضرا بحضارة واحدة ، ونشأ بينهم أدب من أشهر ما فيه قصة الطوفان .

الدور الثانى (٢٢٠٠ — ١٣٠٠ ق.م)

ثم ضعف هؤلاء الملوك — ملوك سومر وأكاد — ودخلت بلادهم تحت حكم أهل عيلام الساكنين شرق الخليج الفارسى ، وتلت ذلك إغارة جديدة من البدو غربى الفرات استولوا فيها على مدينة بابل نفسها ولم تكن إذ ذاك إلا مدينة صغيرة خاملة . وقد تم ذلك حول عام ٢٢٠٠ ق . م

حمورابى مؤسس ملك بابل

وقام فى بابل ملك اكتسب فى التاريخ شهرة هو حمورابى .

هزم حمورابى أهل عيلام وملك محلهم عام ٢١٠٠ ق.م.

رسائل حمورابى

وقد أسعد الحظ المؤرخين فعثروا على خمس وخمسين رسالة لحمورابى قرأوا فيها ما يدل على شدة اهتمامه بملكه من تدقيق فى جمع الأموال فى أوقاتها ونظر فى أمور المعابد وهكذا .

قوانينه

وعثروا له أيضا على القوانين التى سنها لحكم الدولة وهى أقدم ما وصل الينا من تشريع المشرعين . والظاهر أن حمورابى جمع القوانين والعادات المعمول بها فى وقته وأضاف اليها من عنده وسطرها جميعا على لوح من الحجر ، وفوقها رسم نفسه يتسلم القوانين من الشمس التى كانوا يعبدونها . وقد وجد هذا اللوح فى معبد قديم .

التجارة

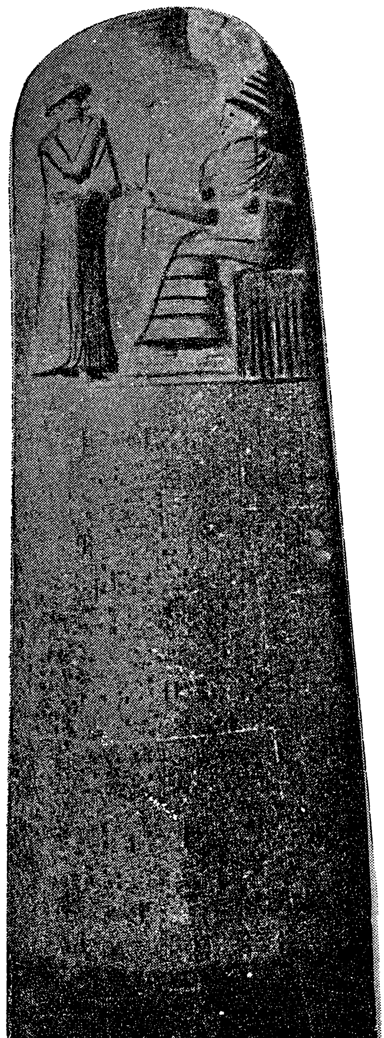
وكان لحمورابى جيش ضرب به على أيدى العابثين بالأمن وأخلد الناس للعمل فانتشرت فى ظل النظام تجارة بابل وتعلم الناس فى غربى آسيا الخط المسمارى من التجار البابليين .

التعليم

وعنى أيضا بالتعليم وعلى وجه خاص باعداد الموظفين ، وقد كشف العلماء فى سنة ١٨٩٤ عن آثار مدرسة وعثروا فيها على ألواح التلاميذ . والظاهر أن

البابليين كانوا يقدرون جودة الانشاء ، فكانوا يلقنون التلاميذ أن الانشاء الجيد يضيء كالشمس .

ولكن لم يكشف العلماء بعد عن آثار فنية لعصر حمورابي .



(شكل ١٤ — لوح قوانين حمورابي)

الدور الثالث (١٣٠٠ — ٦٠٦ ق . م)

وفى الدور الثالث ظهرت آشور وقد أقامها البدو فى الأصل حول عام ٣٠٠٠ ق . م . وتعلم الاشوريون من السومريين خطهم وعناصر حضارتهم .

ملك أشور

وقد ظل الاشوريون خاضعين لحكم بابل ، ولكنهم كانوا أمة حربية أتقنت فن الحرب ومارسته ضد جيرانها الحيثيين والفينيقيين الذين كانوا إذ ذاك يحاولون انتزاع ملك مصر فى آسيا .

بنو اسرائيل والأراميين

وجد الأشوريون حائلا دون تقدمهم فى استيطان بنى اسرائيل والأراميين فى فلسطين وسوريا حول عام ٤٠٠ ق . م وكان للآراميين حضارة تفوق ما كان للأشوريين إذ ذاك . كانوا تجارا تعلموا الحروف الهجائية الفينيقية ونشروها فى آسيا فحلت بذلك محل الخط المسمارى ، وكانت دمشق مقر حكمهم .

الخلاصة أن الاراميين تركوا أثرا كبيرا فى تاريخ العالم ، أكبر كثيرا من أثر الاشوريين فيه ، فالاشوريون لم يكن مجدهم الاحربيا محضا .

استيلاء الأشوريين على دمشق عام ٧٣٢ ق . م

وفى القرن الثامن قبل الميلاد أخذ الاشوريون يقيمون صرح ذلك المجد الحربى ، فاستولوا على دمشق عام ٧٣٢ ق.م وصاروا أقوى دولة فى أرض الفرات ذلك بفضل ملك عظيم هو سرجون الثانى (٧٣٢ — ٧٠٥ ق.م) . وابنه الأعظم منه سنخاريب (٧٠٥ — ٦٨١ ق.م) .

استيلاؤه على بابل

وأخيرا استولى سنخاريب على بابل وهدمها وأجرى الماء فوقها . وكان رجلا غليظا اذا فتح بلدا أثقل كاهل أهله بالضرائب وكانوا اذا ثاروا أخمد ثورتهم بغلاظة كبيرة .

تأسيس نينوى

وأسس نينوى واتخذها عاصمة ملكه وبنى لنفسه قصرا فخما . وكان ملكه عظيما ، نظم به البريد كى يتم اتصاله بعماله فى الأقاليم النائية .

الجيش الأشورى

وكان الجيش الاشورى يتكون من مشاة مسلحين بالسهام والحراب ومن فرسان وعجلات حربية . واكتسب شهرة هائلة فى الشرق القديم ، وبه دوخ الملوك الاشوريون الدول القديمة وجمعوا نفائسها لتزيين قصورهم . واشتهر

العسكر الاشوريون بالقسوة فى معاملة أعدائهم فكانوا يسلخون الاسرى وهم أحياء، ويقطعون رؤوسهم على ملأ من الناس وفى كتب أنبياء بنى اسرائيل وصف لكل ذلك .

العلاقات بين مصر وأشور

أغار سنخاريب على مصر محاولا فتحها . وقد أغراه على هـذا ما كانت عليه من الضعف .

تركنا مصر عنـد تولى الملوك من الكهنة أمرها . وقد ذكرنا ما كان من ضعفهم . ففقدت مصر أيامهم النوبة وطورسيناء . ولم يبق لهم إلا وادى النيل بين البحر وأسوان . وحتى هـذا الوادى أخذ يتنازعه الأجانب وتقلد تاجه ملوك من الليبيين والنوبيين .

الملوك الليبيون (٩٤٥ – ٧٢٥ ق . م)

تولى الملوك الليبيون حكم مصر واتخذوا مدينـة بسطة فى الدلتا عاصمة لهم ومن أشهرهم شيشنق . وفى العصر الليبى أخذت قوّة الأشـوريين فى الظهور فى آسيا . ثم نازع الليبيين عرش مصر ملوك من النوبة . ونجح هؤلاء فى بسط حكمهم على مصر كلها .

الملوك النوبيون (٧٤٥–٦٦١ ق . م)

وقبل وصف اغارة النوبيين على مصر يجدر بنا فهم حالتهم فى بلادهم .

تمصرت النوبة تحت حكم الفراعنة تمصرا يكاد يكون تاما وانتشرت فيها العبادات المصرية وصار لكهنة آمون بوجه خاص نفوذ كبير وقد بلغ من أمرهم أنهم كانوا يقيمون الملوك فى الأقليم الخصب بين الشلالين الثالث والرابع (مديرية دنقله) ومركزهم هناك مدينة نباطى . وتحت تأثير الكهنة النوبيين اعتزم ملوك النوبة نشر سلطانهم على مصر نفسها .

وقد تم هـــذا على يد الملك پعنخى . وكان پعنخى هذا فاتحا رحيما يجرى فى عروقه دم الفراعنة . فيخطئ إذن من يرى فى اغارة النوبيين تغلب الزنوج الإفريقيين على مصر فالنوبة بلد مصرى من قديم الزمان .

النزاع بين المصريين والأشوريين على فلسطين

وكان أول ما اشتبك الفراعنة بالأشوريين فى فلسطين تتنازع النفوذ عليها دولتا مصر والأشوريين . وقد تمكن الأشوريون من سحق النفوذ المصرى فيها . ثم أخذ ملوكهم بعد ذلك يحاولون فتح مصر نفسها . وقد تمكن آسر حدون ملك الأشوريين من التغلب على الدلتا سنة ٦٧٠ ق ٠ م . هذا ولما ثارت الدلتا على الحكم الأشورى غزاها من جديد الملك أشور بانيبال الذى خلف آسر حدون فى سنة ٦٦٨ ق٠م .

امتلاك الأشوريين مصر

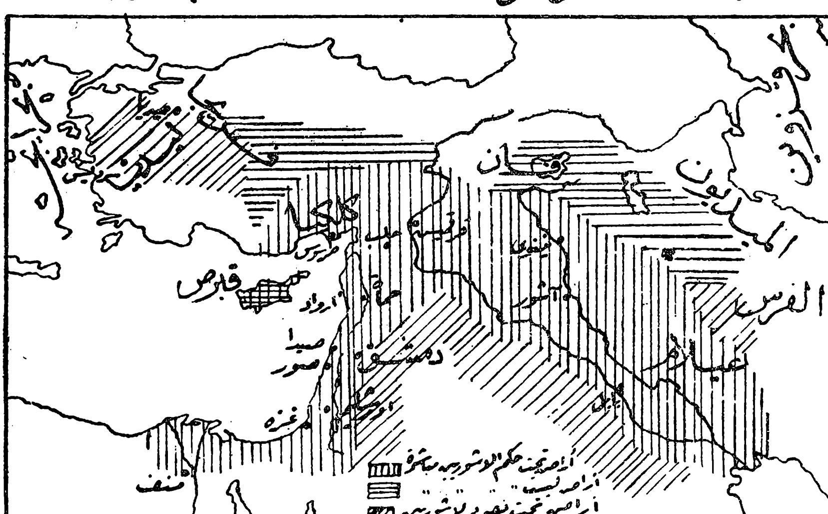
أبسماتيك واستقلال مصر

ولكن هذا الفتح الأشورى لم تثبت دعائمه ولم يخلص للأشوريين حكم البلاد فقد نازعهم النوبيون اياها. وكانت الحالة كذلك الى أن قام أمير مصرى اسمه أبسماتيك فى مدينة صالحجر فى غرب الدلتا ونجح بالاستعانة بجنود مرتزقة من الأعزيق فى الاستقلال بمصر وكان ذلك عام ٦٥٢ ق٠م .

النهضة المصرية

وقد بدأت مصر أيامه تحيا بعض الشىء .

دولة الأشوريين فى أقصى اتساعها (عهد أشور بانيبال)



اضمحلال الأشوريين سقوط نينوى عام ٦٠٦ ق٠م

اضمحلت دولة أشور إذ اتحد عليها البابليون والميديون والفرس واستولوا على نينوى عام ٦٠٦ ق .م. ودالت دولتهم ولم تبق الا اطلال حضارتهم .

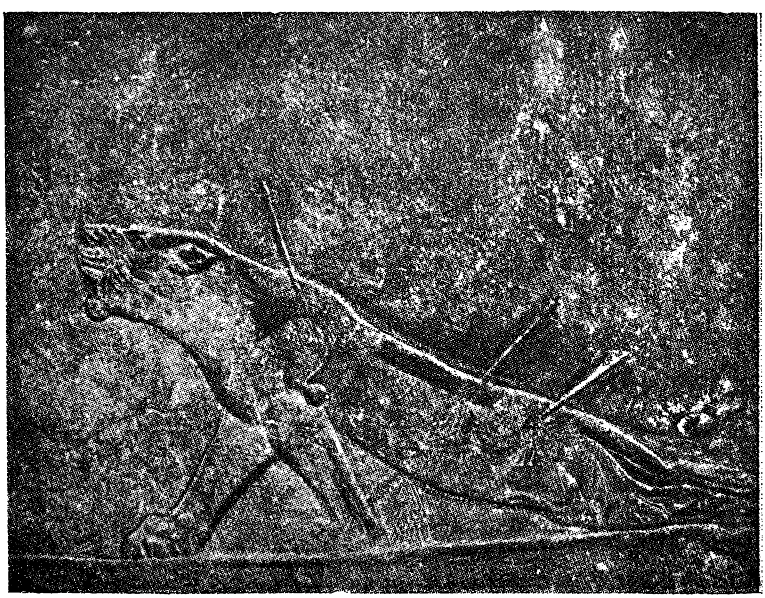
وتنفس أهل الشرق القديم الصعداء. وقد وصف أحد أنبياء بنى اسرائيل ناحوم فرح الناس بسقوط عدوتهم جميعا فقال : "ويل لمدينة الدماء ! عيدوا يا بنى اسرائيل أعيادكم . تعست رعاتك يا ملك أشور . تشتت شعبك على الجبال . ليس جبر لانكسارك . جرحك عديم الشفاء" .

أسباب سقوط الأشوريين

واتخذ الوعاظ من سقوطها عبرة . الا أن أسباب السقوط واضحة : فنشاط الملوك فى الفتح قصم ظهر الأمة ، وأفنى الصناع ، وأجهد الدولة ثم حكمهم لأمم نائية مختلفة عنهم كمصر استلزم جهدا كبيرا .

ولو كان الملوك أقل رغبة فى الفتح لانصرف الأشوريون الى تأسيس مجد غير حربى ، فالأشوريون شعب عظيم . وقد برعوا فى صناعة التماثيل وأتقنوا تمثيل الحيوان على الأخص .

وقد جنح ملكهم أشور بانيبال الى السلم بعض الشىء . فترك مكتبة عظيمة ، فى المتحف البريطانى الآن ٢٢٠٠٠ لوح من محتوياتها ، وموضوعاتها دينية وعلمية وأدبية .



(شكل ١٥ — مثال من رسم الحيوان)

الدور الرابع (٦٢٥ — ٥٣٩ ق . م)

وبعد سقوط نينوى ورث الحلفاء ملكها فاستولت بابل على سوريا والأجزاء الغربية من دولة الأشوريين ، واستولى الميديون على الأجزاء الشمالية والشرقية .

دولة الكلدانيين واستيلاء نابوخذ ناصر على أرشليم عام ٥٨٦ ق . م

عظمت بابل مرة أخرى وتعرف الدولة الجديدة فيها بالدولة الكلدانية ومؤسسها نابو بولاسار . وخلفه ابنه نابو خذ ناصر الثانى (٦٠٥ — ٥٦١) . وهو الذى استولى على أرشليم عام ٥٨٦ ق .م واقتاد بنى اسرائيل أسرى الى بلاده .

وبنى قصرا هائلا وجعل فيه حدائق على عمد يعتبرونها من عجائب العالم السبع . وبنى معابد وصارت بابل فى أيامه مدينة عظيمة .

كورش يستولى على بابل

ولكن تلك العظمة لم تدم ، فالفرس حلفاء الكلدانيين صاروا عظيمى القوة وأخيراً فتح كورش ملكهم بابل عام ٥٣٩ ق.م .

والفرس قوم يتكلمون لغة آرية وهم أول الآريين ظهورا فى التاريخ .

الحضارة الكلدانية

وكان للكلدانيين ولع بالفلك والنجوم فوصفوا الأبراج السماوية وبلغ من درايتهم أن تمكنوا من التنبؤ بأوقات الكسوف .

ويتوقع العلماء أن البحوث فى اطلال بابل التى لم تبدأ الا فى عام ١٨٩٩م ستكشف عن آثار يرجع عهدها لحمورابى .

الفصل الثالث

بنو اسرائيل

وصف فلسطين

فلسطين موطن أمة لم تترك رسوما وتماثيل ومعابد ضخمة ولكنها تركت دينا وآدابا ، وأثرت بذلك فى تاريخ الحضارة أثرا لا يقل عن أثر الاغريق . أمة كانت أول من عرف عقيدة الوحدانية السامية وعبدت الله ولم تتخذ له من الأوثان زلفى .

تلك هى أمة بنى اسرائيل نشأت فى الصحراء ثم سكنت فلسطين وهى أرض مكوّنة من هضبة ووديان تتنوع فيها الحاصلات ؛ فالمسطحات على الهضبة تصلح للرعى والوديان تنبت الكرم والقمح والزيتون وفى الأغوار تلتف الأشجار .

وقرب البحر تشرف الهضبة، وهى هناك جرداء، على الساحل. وفى هذا الساحل سكن الفلسطينيون . وقد تقدم ذكر قدومهم هناك [1] وفى الشمال يضيق الساحل ويكثر خصبه ، وفى الجنوب يتسع ويقل خصبه ويمتد نحو طور سيناء ويمر فيه الطريق بين مصر وبلاد الشرق القديم .

نزح بنو اسرائيل من الصحارى الى فلسطين، فاحتاجوا الى تغيير نظامهم الاجتماعى الذى نما فى الصحارى حتى يصلح لهم فى بيئتهم الزراعية التجارية الجديدة . وشق على بنى اسرائيل التخلى عن عاداتهم ونظامهم الأول وحاولوا المحافظة عليه ما استطاعوا الى ذلك سبيلا .

التوطن فى فلسطين والخروج من مصر

نبذ بنو اسرائيل العيشة البدوية وتوطنوا فلسطين. ويقال إن ذلك تم بين سنتى ١٤٠٠، ١٢٠٠ ق .م. ويقول المؤرخون إنهم ذهبوا الى مصر وإنهم قاسوا كثيرا على يد الفراعنة . ومن المؤرخين من يدعى أن الذى سامهم سوء العذاب من الفراعنة كان رمسيس الثانى ومنهم من يزعم أنه منفتاح . ثم خرجوا من مصر تحت زعامة النبى موسى كما جاء فى الكتب المقدسة .

هذا وقد تقدم القول أن خروجهم من مصر كان غالبا قبل ذلك التاريخ [2] فالثابت أنهم كانوا فى فلسطين قبل زمن رمسيس الثانى ومنفتاح ، اذ أنهم انتهزوا تفكك ملك مصر أيام اخناتون للاغارة على فلسطين . وفوق ذلك فلا ضرورة تحتم أن يكون كل من كان فى فلسطين من بنى اسرائيل من نفس القوم الذين خرجوا من مصر .

---

(١) ص ٥٣

(٢) ص ٤٠

بنو اسرائيل والكنعانيون

ولما سكن بنو اسرائيل فلسطين وجدوا بها الكنعانيين وهم من جنسهم تماما ، فامتزج الشعبان امتزاجا تاما .

ملك شاول

ثم قام النزاع بينهم وبين الفلسطينيين سكان السواحل وكانوا متحضرين مترفهين الا أن الضعف كان قد أخذ يدب فيهم . وقد كرههم بنو اسرائيل لعبادتهم الأوثان ، فاتحدوا عليهم تحت زعامة شاول .

ملك داود (١٠٠٠ — ٩٦٠ ق . م)

الا أن شاول لم يكن على وفاق مع رجال الدين ، فقد كان هؤلاء يريدون ملكا يأتمر بأمرهم ويتبع نصحهم فى كل شىء . ولم يرض شاول أن يكون ذلك الملك ، ففتك بعدد كبير منهم ، فساعد من بقى منهم داود على تولى العرش بدلا من شاول .

ملك داود وكان رجلا قويا أخضع رجال الدين بعد أن ساعدوه ، وتحصن فى أرشليم وتغلب على الفلسطينيين ونظم ملكه على نمط الدول المتحضرة المجاورة .

ولكن كانت تغلب على ملكه الصفة الحربية وتقل فيه رفاهية الحضارة .

ملك سليمان (٩٦٠—٩٣٠ ق . م)

وخلف داود ابنه سليمان وكان ملكه أفخم من ملك داود شاول . بنى سليمان المعبد ونبذ سذاجة أبيه وبسط يده . وقد عرف سليمان كيف يستفيد من موقع فلسطين الجغرافى فتاجر مع حيرام ملك صور المدينة الفينيقية الكبيرة واتصل حتى بجنوبى شبه جزيرة العرب ، وله مع بلقيس ملكة سبأ قصة مشهورة وتزوج إحدى بنات فرعون .

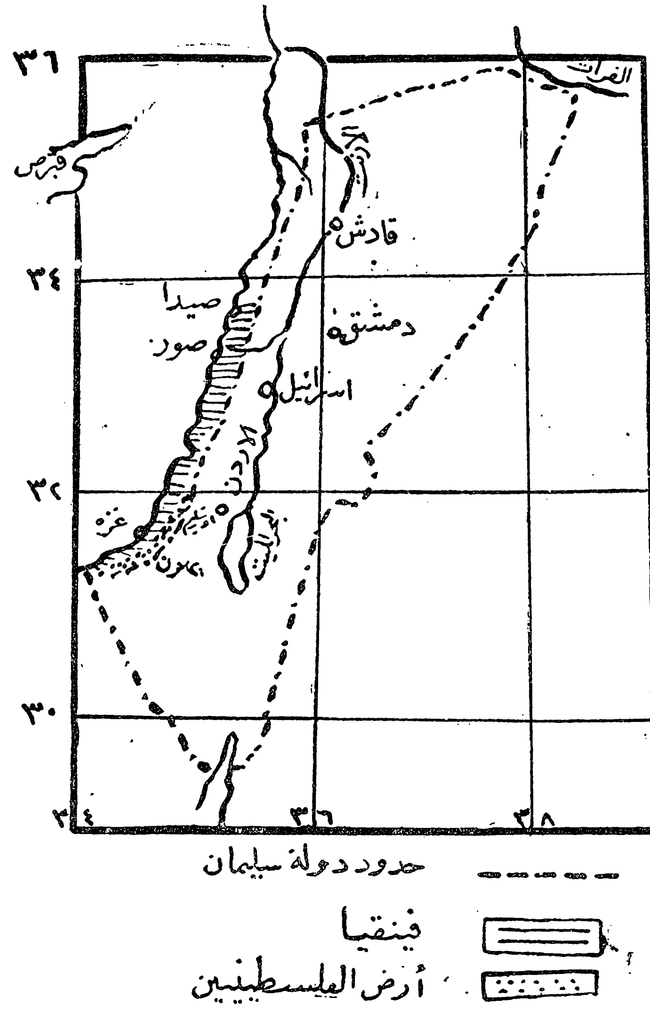
وقد أثار كل ذلك اعجاب بنى اسرائيل وتحدث أهل الشرق القديم بخزائن سليمان ومبلغ قدرته .

ضعف ملك بنى اسرائيل ، الانقسام إلى مملكتى الشمال والجنوب عام ٩٣٠ ق . م

وقد بدت بوادر الضعف فى هذا الملك سريعا فلم تحتمل موارد الاسرائيليين الضرائب التى استلزمتها أبهة سليمان ؛ فثاروا أيام ابنه وانقسموا قسمين ، مملكة اسرائيل فى الشمال ومملكة يهوذا فى الجنوب ومقرها أرشليم .

الكتابة العبرية أول تاريخ لهم (عام ٨٥٠ ق م)

وبعد ذلك نبذ الاسرائيليون استعمال الفخار والخط المسمارى وكتبوا على الورق بالمداد مستعملين الحروف الهجائيـة الفينيقية ثم قص مؤرخ مجهول أول تاريخ لهم ضمنه أخبار آبائهم ابراهيم واسحق ويعقوب ويوسف .



أشور تمحو مملكة الشمال

الا أن الانقسام أضعفهم وتنبأ نبيهم عاموس بسقوط مملكة اسرائيـل لسوء معيشة أهلها . وقد تحقق ذلك فاستولى الأشوريون على سامريا عاصمة

المملكة عام ٧٢٢ ق . م . وسقطت المملكة الشمالية بعـد مائتى عام من تأسيسها ، وعانى الاسرائيليون أول أسر فى بلاد أعداء دينهم .

الأسر الأول والنبى أشعيا

أما مملكة يهوذا فظلت قائمة مائة وخمسين سنة بعد ذلك وقام فيها نبى عظيم حوالى عام ٧٠٠ ق.م هو أشعيا . وذلك وقت ظهور سنخاريب وعلو كلمته فى الشرق . وقد تنبأ أشـعيا فى خطب بلغت غاية الفصاحة بأن سنخاريب لن يفلح فى الاستيلاء على أرشليم . وقد تحققت تلك النبوءة اذ فتك بجيش سنخاريب طاعون مبيـد ونجت أرشليم بذلك ثم سقطت نينوى عام ٦٠٦ وزال الخطر على يهوذا من الأشوريين .

القضاء على المملكة الجنوبية ٥٨٦ ق.م

ولكن ظهر لهم خطر أكبر : فقـد قامت دولة الكلدانيين . وفى عام ٥٨٦ ق . م استولى نابوخذ ناصر على أرشليم واقتاد الاسرائيليين الى بابل .

وبذلك انتهى ملك بنى اسرائيل بعـد أربعمائة وخمسين عاما من انشائه على يد شاول .

الأسر ٥٨٦ — ٦٢٩ ق.م

وفى الأسر ازداد حنينهم الى بلادهم وبكى شعراؤهم فلسطين :

على أنهـار بابل جلسنـا وبكينا عند ما تذكرنا صهيون

على الصفصاف فى وسطها علقنا أعوادنا ، لأن الذين أسرونا طلبوا منـا أن نرنم لهم من ترنيمـات صهيون .

كيف نرنم ترنيمة الرب فى أرض غريبة ، انـ نسيتك يا أرشليم تنسى يميـنى ...

يا بنت بابل طوبى لمن يجازيك جزاءك الذى جزيتينا " .

العودة الى الوطن عام ٩٣٥ ق.م

وعنـد ما اسـتولى كورش ملك الفرس على بابل عاد بنو اسرائيـل الى فلسطين وبنوا معبدهم . ولكن ملكهم لم يعد بل صار أصحـاب الأمر فيهم رجال دينهم وبذلك تحول ملكهم الى رياسة دينية .

الآداب الدينية

ثم جمعت بعد ذلك أخبار ملوكهم وأنبيائهم وأنشئت المزامير للتغنى بهـا فى المعبد . وبعد ظهور المسيحية جمعت كل تلك الأشياء فى كتاب واحد هو العهد القديم .

الفصل الرابع

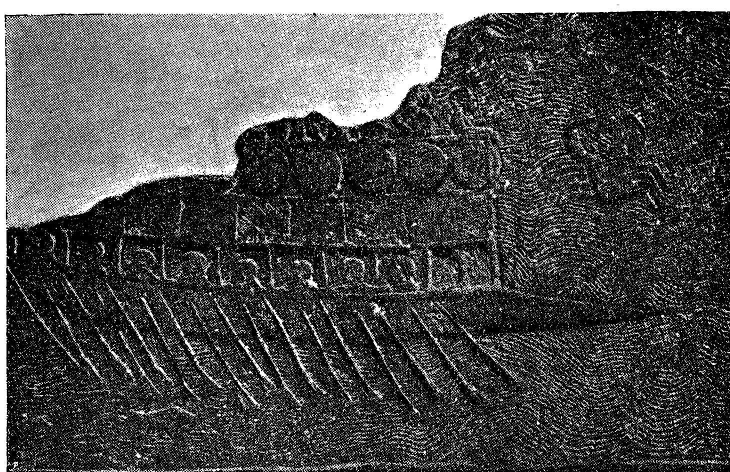
الحضارة الفينيقية

وصف فينيقيا

فينيقيا سهل ضيق بين البحر الأبيض المتوسط غربا وجبال لبنان شرقا، وتنبع فى هذه الجبال أنهار تشق السهل وتصل الى البحر وهى سريعة الجريان لقلة البعد بين منابعها ومصابها .

وقد اتخذ أقوام يتكلمون لغة سامية مدنا لهم على ساحل البحر اختاروا لمواقعها رءوس الساحل والجزر الصغيرة القريبة منه ، فجمعوا بذلك بين صيد حيوان البحر والزراعة وانشاء السفن .

ثم قامت لهم تجارة فى خشب غابات الجبال وحاصلات سوريا . وكانت هذه التجارة قديمة جدا ، تسمع عنها قائمة فى أيام الأسرة السادسة المصرية. واتسعت التجارة الفينيقية اتساعا كبيرا .



(شكل ١٦ — سفينة حربية فينيقية)

الحضارة الفينيقية

وللفينيقيين أثر كبير فى التاريخ ؛ اذ كانوا رسل الحضارة الشرقية الناشرين لها فى أوربا .

وأهم مدنهم صور وصيدا . وكانوا وثنيين : عبدوا معبودا اسمه بعل ورمزوا له برجل فى رأسه قرنا ثور . وكان بعل هذا معبودا قاسيا لا بد من اراقة الدماء لارضائه وتسكينه . وعبدوا أيضا معبودة اسمها استارتة ورمزوا لها بامرأة فى شعرها هلال وتحمل حمامة وتمثل عندهم الربيع والحب. وقد نفر بنو اسرائيل من هذه العبادات الوثنية .

التنازع فى المدن الفينيقية على الحكم

وأول تاريخهم كان عهد ثورات داخلية ، اذ أن طبقة الأغنياء وذوى الانساب (الارستقراطية) حاولت أن تحكم المدن فثارت عليها العامة ، وقام النزاع بذلك . وكانت اذا تغلبت طبقة اضطهدت من تغلبت عليه فيضطر المغلوبون الى النزوح عن وطنهم والاستعمار خارج فينيقيا .

الاستعمار الفينيقى قرطاجنة

وأشهر مستعمرات الفينيقيين قرطاجنة وقد أسسوها حول عام ٨١٤ ق.م .

علاقات الفينيقيين بمصر وأشور

لم يتحد الفينيقيون فى دولة واحدة ، ولم تكن هناك بين مدنهم الا روابط ضعيفة . وفى أول الأمر كان لمدينة صور شبه رياسة عليهم .

ولم يكن للفينيقيين أطماع سياسية ؛ بل تفرغوا لتجارتهم . لذلك كانوا يتزلفون الى الدول القوية التى قامت بالقرب منهم ولو استلزم ذلك خضوعهم لها سياسيا . فخضعوا للمصريين أولا وللاشوريين ثانيا وللفرس أخيرا .

الخضوع لمصر ١٦٠٠ — ١١٠٠ ق . م

بدأ الخضوع لمصر فى عهد الأسرة الثامنة عشرة وانتهى أيام ثورة اخناتون ثم أعاده رمسيس الثانى .

استقلال الفينيقيين ١١٠٠ — ٨٧٦ ق . م

ولما ضعفت مصر بعد موت رمسيس تمكن الفينيقيون من الاستقلال وصارت لصور الزعامة فيهم ؛ ونشطت حركة الاستعمار .

الخضوع للأشوريين ٧٨٠ — ٦٠٥ ق . م

واستمر الأمر كذلك الى عام ٨٧٦ ق . م عندما خضعت فينيقيا للاشوريين . ودامت سيادة الاشوريين حتى سنة ٦٠٥ ق . م .

الفينيقيون فى مصر

وفى أثناء خضوعهم لمصر سمح الفراعنة لهم بالاتجار فيها وأسكنوا تجارهم فى أحياء خاصة بهم فى مدن الدلتا وعلى الأخص فى مدينة منف .

مستعمرات الفينيقيين

ولما تخلصوا من السيادة المصرية نشطت حركة الاستعمار فاستعمروا فى قبرص ومنها انتقلوا لسواحل آسيا الصغرى وبجزيرة رودس وغيرها من جزر الأرخبيل وبجزيرة كريد ومنها انتشروا شمالا فى تراقية فى شبه جزيرة البلقان .

وقد عبروا مضيق الدردنيل والبسفور واستعمروا فى بلاد القوقاز .

الاغريق والفينيقيون

ولما قام الاغريق بنهضتهم العظيمة وجدوا الفينيقيين أمامهم فى كل مكان فقام نزاع بين الشعبين انتصر فيه الاغريق وأرغموا خصومهم على التخلى عن الاجزاء الشرقية للبحر الابيض المتوسط .

استعمار الفينيقيين فى غربى البحر الأبيض المتوسط

فارتحل الفينيقيون الى الأجزاء الغربية منه واستعمروا فى ايطاليا وصقلية ومالطة وشمالى افريقية وسردينيا وجزائر البليار . وعبروا مضيق جبل طارق وانشئوا مدينة قادس فى اسبانيا ووصلوا الى سواحل بريطانية وغالة (فرنسا الحالية) . ويقال إنهم زاروا سواحل افريقية الشرقية .

تجارتهم البرية

وكانت لهم أيضا تجارة برية عظيمة ، وجلبت قوافلهم حاصلات بلاد العرب والهند والقوقاز واشور والسودان مثل العطور والاحجار الكريمة والذهب وسن الفيل وريش النعام والعبيد والسجاجيد والبلح .

صناعتهم

ولقد ربحوا ربحا كبيرا من هذه التجارة الشاملة العالم كله على عهدهم وقامت فى صور وغيرها صناعة راقية . وأشهر صناعتهم نسج المنسوجات وعمل الأوانى من الذهب والبرونز والحلى والزجاج الشفاف واشتهروا خاصة بصبغ استخرجوه من الاصداف .

حيرام ملك صور ٩٧٠ — ٩٣٦ ق ٠ م

وبلغت صور اقصى قوتها فى عهد حيرام صديق سليمان . وقد أرسل عمالا فينيقيين للعمل فى بناء معبده بارشليم .

ثم استولى الاشوريون على فينيقيا فى عام ٨٧٦ ق.م. واستخدم سنخاريب ملاحين فينيقيين فى سفنه .

وثارت صور مرارا وفى عام ٥٨٦ ق . م. حاصرها نبوخذ ناصر حصارا دام ثلاثة عشر عاما .

الخضوع للفرس ٥٣٨ — ٣٢٣ ق . م

ولما تغلب الفرس على الكلدانيين وصاروا أقوى دول الشرق خضعت لهم فينيقيا من عام ٥٣٨ الى ٣٣٣ ق . م وكانت السيادة الفارسية عهد رخاء للفينيقيين ظهرت فيه مدينة صيدا .

وفى الحروب بين الفرس والاغريق نقل الفينيقيون على سفنهم عساكر الدولة الغازية صاحبة السيادة عليهم . فانتقموا بذلك من طرد الاغريق لهم من مستعمراتهم فى شرق البحر الأبيض المتوسط .

الاسكندر الأكبر

ثم ظهر الاسكندر الاكبر المقدونى وقامت الحرب بينه و بين ملك الفرس ففقد الفينيقيون من ينصرهم ويقيهم عداء الاغريق . وفى عام ٣٣٢ ق . م . استولى الاسكندر على صور بعد حصار دام سبعة شهور ودمرها ثم دخلت فينيقيا نهائيا فى حوزة الرومان كجزء من سوريا .

قرطاجنة

وورثت قرطاجنة عظمة صور وحكمت المستعمرات الفينيقية فى افريقية وصقلية واسبانيا ، وورثت أيضا عن صور عداوتها للاغريق والرومان . وسنرى كيف تغلبت روما على قرطاجنة وكيف دمرتها فى عام ١٤٦ ق . م .

الحروف الهجائية

نقل الفينيقيون فيما نقلوا من حضارة الشرق الحروف الهجائية التى اتخذوها من الديموطيقية المصرية وجعلوها مكونة من اثنين وعشرين حرفا ساكنة ومتحركة وقد أخذ هذه الحروف عنهم الاغريق ومن الاغريق تعلمها الرومان

الفصل الخامس

الفرس وفتحهم لمصر

الفرس والأوربيون

يتكلم الفرس لغــة آرية وكذلك الأوروبيون لغاتهم آرية . وبذلك كان قيام دولة الفرس أول انتصار للناطقين بالآرية على الشعوب صاحبة اللغات السامية .

وجدودهم الأول كانوا بدوا يسـكنون بالقرب من بحر قزوين . ومنهم أقوام تركوا مواطنهم واتجهوا غربا ثم سـكنوا فى شبه جزيرة البلقان ، والى هؤلاء ينسب الا غريق والرومان ، وأقوام رحلوا نحو الشرق فذهب فريق الى الهند وفريق سكن شرقى الدجلة وهم الميديون والفرس .

زرتشترا (زردشت)

حوالى عام ١٠٠٠ ق.م. قام بينهم معلم دينى عظيم اسمه زرتشترا (زردشت) . وعلمهم أن هناك الهين أحدهما اله الخير واسمه أهرمزدا والآخر إله الشر واسمه أهرمن وأن الالهين فى نزاع دائم .

نمو ملك الفرس

كانت القوة أولا فى يد الميديين وهم الذين حالفوا بابل ودمروا نينوى عام ٦٠٦ ق . م وكان الفرس اذ ذاك يخضعون لهم وكانوا غير متحضرين ليست لهم آداب أو فنون أو كتابة ثم ظهر بين الفرس ملك عظيم هو مؤسس ملكهم ذلك هو كورش .

كورش : فتح ليديا وآسيا الصغرى عام ٥٤٦ ق ٠ م الاستيلاء على بابل عام ٥٢٩ ق ٠ م

تغلب كورش على الميديين ثم على ليديا ، وهى مملكة اغريقية على شاطئ آسيا الصغرى ملكها اسمه كروسس وعاصمتها سرديس ، وذلك فى سنة ٥٤٦ ق . م ثم حول الفتح نحو الكلدانيين فهزمهم واستولى على بابل سنه ٥٣٩ ق . م وصارت دولته أقوى دول الشرق .

وقد أتم خلفاؤه توسيع دولته .

حالة مصر قبل الفتح الفارسى

وقبل أن نتكلم على فتح ابنه قمبيز مصر يجب علينا أن نصف حالة مصر تحت حكم ابسماتيك الأوّل وخلفائه .

وقد ذكرنا أن مصر أخذت تحيا بعض الشيء فى عهدهم . حتى أن المؤرخين يسمون ذلك الدور من تاريخها بعصر النهضة المصرية .

ولم تكن تلك النهضة فى الواقع الا محاكاة المصريين لحضارتهم الأولى وتقليدهم الفنون والآداب الأولى والمبالغة فى ذلك حتى أعادوا كل شيء كما كان عليه ولم ينسوا أتفه الأشياء . ويجب أن لا يغزب عن البال أن مصر ذلك لم تستعد شبابها الأوّل بل كانت كالرجل الهرم يقلد الشاب فى هيئته ويخفى أثر الكبر فيه بالدهان .

هـذا وقد بالغ ابسماتيك وخلفاؤه فى الاستعانة بالأغريق وتشجيعهم على الاستيطان فى البلاد .

نخاو

ومن أشهر خلفاء ابسماتيك ابنه نخاو . وقد شجعه سقوط الدولة الأشورية بواسطة الفرس على الاغارة على فلسطين ولكن لم يلبث أن طرده عنها البابليون ، واهتم بالتجارة فكانت له سفن فى البحر الأبيض المتوسط والبحر الاحمر، وحاول توصيلهما بقناة . ويقال إنه هلك فى ذلك نحو ١٢٠٠٠٠ عامل . ولما تنبأ متنبئ بأن القناة لن تنفع الا الأجانب أقلع عن فتحها وقد قال ديودور بأنه عدل من فكرته لما عرفوه أن البحر الأحمر مرتفع عن البحر الأبيض المتوسط وأن فتح القناة قد يغرق الدلتا . وقد ظل هذا الرأى الفاسد حتى القرن التاسع عشر .

ويقال إن بعض ملاحى نخاو ساحوا حول ساحل إفريقية كلها .

ابريس

ومن ملوك هـذه الأسرة أيضا أبريس ، وقد ثار عليه المصريون لما رأوا من شدة ميله للأغريق ، وتولى مكانه قائد جنده .

أحمس نوقراطيس

ولم يكن احمس هذا بأقل تحيزا للأغريق فأسسوا فى أيامه مدينة نوقراطيس بالقرب من فرع النيل الغربى وكانت مدينة أغريقية صرفة يتبادلون فيها حاصلات بلادهم ويصنعون بها الصناعات الأغريقية وبها مبان أغريقية

وكانوا مستقلين فى حكمها عن الحكومة المصرية مرتبطين بالحكومات الأغريقية فى كل شيء حتى أن دار الحكم فى نوقراطيس شيدت على نفقة الحكومات الأغريقية .

وربما كان الدافع لأحمس على اتباع هـذه السياسة رغبته فى تشجيع التجارة . والثابت أنه كان شديد الخوف من الفرس الذين امتلكوا غربى آسيا وقضوا على الدول القديمة به فظن أنه قد يجد فى الأغريق حلفاء يمنعون الفرس عنه .

تغلب الفرس على مصر عام ٥٢٥ ق . م

وقد وقع ما كان يخافه أحمس فى عهد خلفه اپسماتيك الثالث وذلك أن قمبيز ملك الفرس غزا مصر عام ٥٢٥ ق . م وتغلب عليها . ولكنه فشل فى حملتين أرسلهما إلى سيوة وبلاد النوبة. والظاهر أن ذلك الفشل أغضبه فأهان المصريين بذبح معبودهم أبيس . وقد أسرع فى العودة الى بلاده لما علم بقيام رجل فيها ادعى الملك ولكنه مات فى الطريق .

حكم دارا الأكبر وتنظيم الفتوح ٥٢١ — ٤٨٥ ق . م

ثم تولى أمر الفرس الملك العظيم دارا الأول فنظم الملك وقسم الدولة الى عشرين اقليما يحكمها ولاة من قبله .

ولم يكن الفرس غلاظ الطبع كالاشوريين فتركوا للشعوب المحكومة شيئا من الحرية واكتفوا منها بالاتاوة والجند .

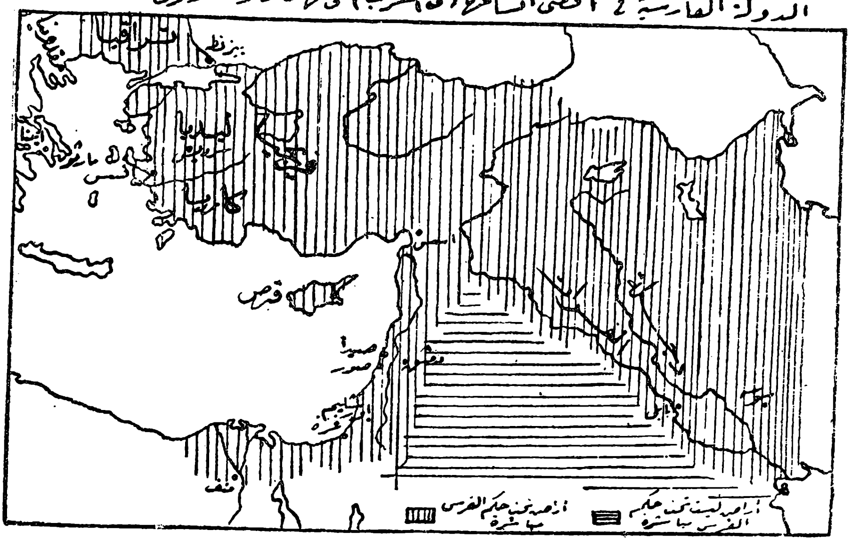
سوسه

ووصل دارا النيل بالبحر الأحمر لتسهيل المواصلات. واهتم لتحقيق ذلك بانشاء الطرق والبريد . وكانت عاصمته سوسه وموقعها فى الشمال الشرقى من الخليج الفارسى . وكانت له أيضا مدينة ملكية لسكناه هى برسبوليس . وقد نقل الفرس فن البناء عن مصر وبابل واشور وكتبوا أولا الخط المسماوى ثم الآرامى ثم الفينيقى .

الاسكندر الأكبر

وقد بقيت هذه الدولة العظيمة الحسنة السياسة قائمة الى أن قضى عليها الاسكندر الاكبر فى عام ٣٣٣ ق. م ودخلت مصر فى دولته .

الدولة الفارسية في أقصى اتساعها (في الغرب) في عهد دارا الأول .



الباب الثالث

المدنية الاغريقية ودولة البطالسة

الفصل الأول

كريد والحضارة الاغريقية الأولى

بحر الأرخبيل

كريد وغيرها من الجزر وأشباه الجزر فى بحر الأرخبيل بقايا أرض ممتدة من آسيا الصغرى لأوربا لم يغمرها الماء لارتفاعها .

وفى كريد بيئة شديدة التنوع فى المناخ والحاصلات على ضيق الجزيرة ففيها جبال تكسوها الغابات . وبها مراع وأرض زراعية . فجمع أهلها بين الصيد فى البحر والرعى والزراعة .

واتصال كريد بغيرها من الجزر أمر سهل . فقامت بينها وبين سواحل البحر الأبيض المتوسط تجارة فى الاسفنج والسمك والزيت والنبيذ والأحجار والأوانى .

الا أن اتصال أجزاء الجزيرة بعضها ببعض كان صعبا .

والخلاصة أن اهل كريد أوتوا بسطة فى العيش وأتمت الطبيعة عليهم نعمتها فأمدتهم بأجمل المناظر مما بعث فيهم حبا للجمال ورقة فى الطبع .

قامت فى تلك الجزيرة فى عصور قديمة جدا حضارة عظيمة ولكن الناس كانوا حتى القرن التاسع عشر لا يعرفون عنها كثيرا . وكانوا يظنون أن اول حضارة قامت فى تلك الجهات كانت الحضارة الاغريقية المشهورة فى التاريخ.

كيف كشفوا عن حضارة بحر الأرخبيل — شليمان — سيرارثرافانز

كان أول الكاشفين عن هذه الحضارة شليمان الألمانى . وتلاه باحثون آخرون أشهرهم الانجليزى سيرأرثرافانزالذى رفع اللثام عن مدنية باهرة مقرها كريد .

تروادة

بدأ شليمان بالحفر فى تلال تروادة فى الشمال الغربى من آسيا الصغرى فى عام ١٨٧٠ وفى ظرف أربع سنين كشف عن بقايا تسع مدن الواحدة منها فوق الاخرى . وليست تروادة التى وصف هوميروس فى أشعاره تغلب الأغريق عليها أقدم تلك المدن التسع ، بل قدّر العلماء الزمن بين تروادة هـذه وبين أقدم المدن التسع بألف سنة .

ميسينى وترينس

ثم انتقـل شليمان الى بلاد الاغريق نفسها وأخذ يحفـر فى اطلال قلعة ميسينى بالقرب من خليج كورنث . ووجد هناك قبورا من الحجر وعثر بها على تاج وآنية من الذهب الخالص ووجد أيضا آثارا مشابهة لها فى مدينة تيرينس عند منتهى خليج أرجوس .

كنوسس

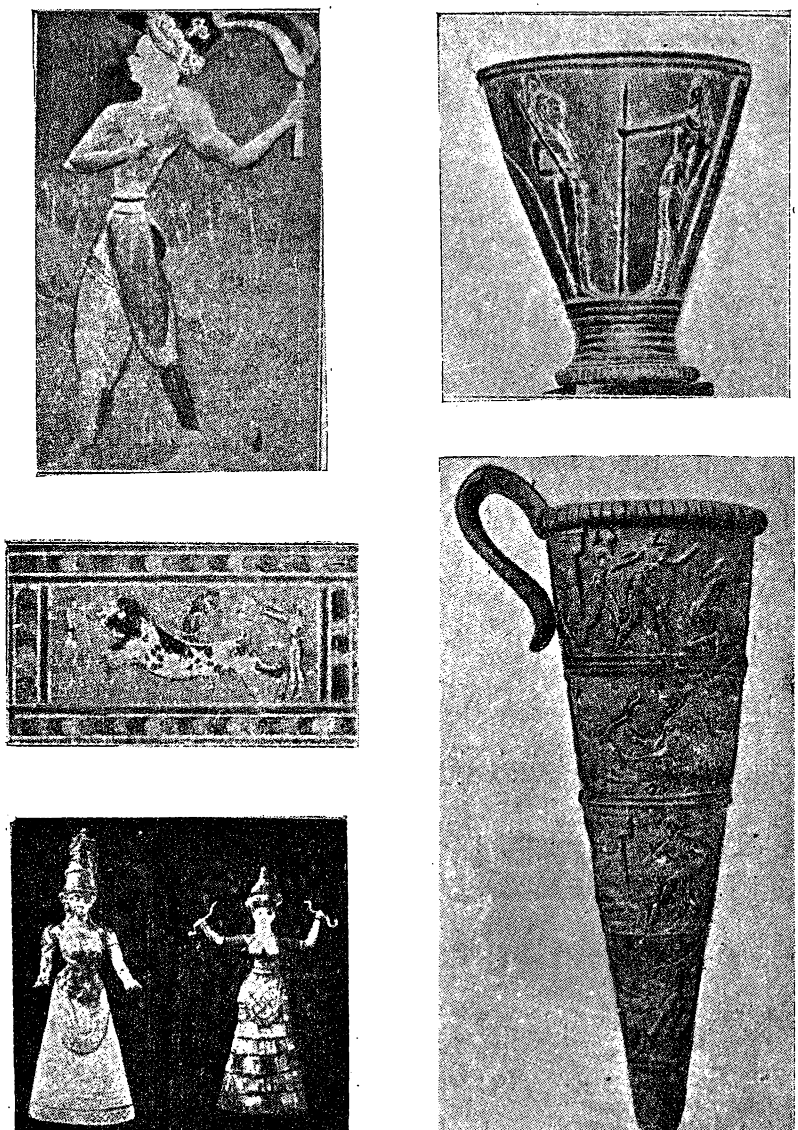
أما مهد تلك الحضارة فلم يكشف عنه إلا فى عام ١٩٠٠ عند ما بدأ سير أرثرافانز ينقب فى اطلال كنوسس فى جزيرة كريد وقد والى سير أرثر الحفر حتى وصل الى أصول تلك الحضارة التى قدر أنها ترجع الى ٣٠٠٠ سنة ق.م

ومنـذ ذلك الكشف ميزالمؤخون بين حضارتين الأولى وموطنها جزيرة كريد سموها الحضارة المينوية نسبة الى مينو من ملوك الجزيرة المذكورين فى الخرافات الاغريقية والثـانية وهى متفرعة عن الأولى وسموها الحضارة الميسينية نسبة الى ميسينى فى بلاد الاغريق .

الكريديون

من هم أولئك الكريديون الذين قامت بينهم تلك الحضارة ؟ الرأى السائد أنهم من الجنس الإفريقى الأبيض أو من جنس البحر الأبيض المتوسط وليست لهم صلة جنسية بالاغريق المعروفين فى التاريخ .

ويعتقدون أنهم كانوا على اتصال بالحضارة المصرية القديمة فنقلوا عنها أشياء كثيرة : فآنيتهم تشبه الآنية المصرية وكتابتهم مأخوذة عن الرموز الهيروغليفية .



(شكل ١٧ — نماذج من الفن الكريدى)

بنى الكريديون المدن وبرعوا فى الصناعة واتخذ ملوكهم سكناهم فى كنوسس وأصبحت لهم علاقات تجارية كبيرة بمصر ، وقد وجد الباحثون آنية كريدية فى القبور المصرية .

ولكن الكريديين لسوء حظ التاريخ لم يبنوا مبانى ضخمة تقاوم فعل السنين كمبانى المصريين ، وللآن لم يستطع المؤرخون فك رموز كتابتهم .

أزهى عصور الحضارة الكريدية ١٦٠٠ — ١٥٠٠ ق.م

أما أزهى عصور تلك الحضارة فكان من عام ١٦٠٠ — إلى ١٥٠٠ ق.م أى فى عهد الأسرة الثامنة عشرة المصرية — عهد تحوتمس الأول وحتشبسوت .

الصور على جدران القصر الملكى

وفى ذلك العصر زين رجال الفن الكريديون جدران القصر الملكى بكنوسس بصور يخيل إلى الرائى أنها تجسم فيها الحياة ، وأتقن صناعهم عمل الآنية اتقانا لم يبلغه الصناع المصريون . وتمثل تلك الصور مناظر الحياة الكريدية بكل تفصيلاتها ، يرى فيها الناظر السيدات وملابسهن التى تكاد لا تختلف عن أحدث الملابس ولهوهن وغير ذلك من مناظر الحياة اليومية .

مساكن الكريديين

وقد سكن الملوك والعظماء فى مساكن من الحجر تتوافر فيها كل وسائل الراحة التى تجدها فى العالم اليوم مثل الحمامات وتقسيم المسكن إلى غرف ومنافذ الاضاءة وتجديد الهواء وغير ذلك .

خضوع كريد لمصر

وفى القرن الخامس عشر قبل الميلاد خضع الكريديون للسيادة المصرية وقد عثروا حديثا على صحن من الذهب محلى بالنقوش أهداه تحوتمس الثالث إلى قائد من قواده عينه حاكما على جزر الأرخبيل .

انتشار الحضارة الكريدية

ثم انتشرت الحضارة الكريدية إلى بلاد الاغريق ومن مراكزها هناك تيرينس وميسينى . وتعرف الحضارة هناك بالحضارة الميسينية . ويمتد عهد تلك الحضارة من ١٥٠٠ إلى ١٢٠٠ ق . م .

تروادة ، الحيثيون

وانتشرت قبل ذلك إلى آسيا الصغرى حيث بنى الكريديون تروادة قبل أن تظهر ميسينى بألف سنة أى فى سنة ٢٥٠٠ ق . م وصار لملوك تروادة

شأن لا يقل عن شأن ملوك كنوسس ؛ ولكن ملكهم لم يشمل إلا الساحل فكان معظم الهضبة فى يد الحيثيين ، وقد تقدم الكلام عليهم .

تدمير كنوسس أول مرة ١٥٠٠ ق.م

وفى سنة ١٥٠٠ ق . م أو بعدها بقليل أغار على كريد أقوام من الشمال وتغلبوا عليها وأحرقوا القصر الملكى بكنوسس ، ولكن الحضارة استمرت قائمة فى حالة ضعف خمسمائة سنة أخرى أى إلى سنة ١٠٠٠ ق . م عند ما تجددت اغارة أهل الشمال ودمروا كنوسس تماما .

تدمير كنوسس النهائى ١٠٠٠ ق.م

والظاهر أن هؤلاء المغيرين الآتين من الشمال هم الدوريون المذكورين فى شعر هوميروس .

الفصــل الثانى

قدوم الاغريق

الحضارة الاغريقية

بعد تدمير الحضارة الكريدية كانت فترة ساد فيها التبربر فى بحر الارخبيل وسواحله . واستمر الأمر كذلك إلى أن قامت الحضارة الاغريقية .

إذا قرنت هذه الحضارة بحضارة مصر وحضارة بابل تجدها أقصر منهما عهدا. فلا يدوم أزهى عصورها أكثر من مائتى سنة إذا اعتبرنا المدة بين سولون والاسكندر الأكبر ولكن لهاتين المائتى السنة أثرا خالدا فى تاريخ الانسان ، ففى أثنائها ضرب الاغريق بسهم فى كل عناصر الحضارة من نظم سياسية وقانون وفنون وعلوم وآداب وفلسفة ، ووضعوا الاساس الذى قامت عليه الحضارة الحديثة .

وللاغريق ميزة أخرى هى أن تأثيرهم لم ينته بانقضاء عهد استقلالهم السياسى فقد نشرت فتوح الاسكندر حضارتهم فى بلاد الشرق ، وتتلمذ لهم الرومان بعد أن أخضعوهم لحكمهم فكانت الدولة الرومانية العظيمة إغريقية التمدين .

من هم الاغريق؟

قدم الاغريق من مراعى وسط أوربا وأصلهم كما تقدم من المراعى قرب بحر قزوين ودخلوا شبه جزيرة البلقان حوالى عام ٢٠٠٠ ق . م . وقضوا نحوا من ألف سنة فى الاستقرار فى شبه الجزيرة .

الآخيون ، الدوريون ، اليونانيون

وكانت أول القبائل قدوما قبائل الآخيين التى توغلت جنوبا فى أرض البلوبونيز (بلاد المورة الآن) وبعدها قدم الدوريون حوالى عام ١٥٠٠ ق.م وأخضعوا الآخيين والكريديين الذين تقدم وصف حضارتهم وأسسوا مدينة اسبرطة الشهيرة . وبين عامى ١٣٠٠ و ١٠٠٠ ق . م قدم اليونانيون ، وما حلت سنة ١٠٠٠ ق . م إلا وقد استقروا جميعا فى شبه الجزيرة والجزر وسواحل آسيا الصغرى .

الدوريون يستولون على كنوسس

لا يعرف المؤرخون مصير الكريديين بعد تدمير حضارتهم ، ويحتمل أن اختلط معظمهم بالفاتحين . وكل ما يعرف أن الدوريين استولوا على كنوسس حوالى عام ١٥٠٠ ق . م ونقرأ فى أشعار هوميروس أو الياذته حصار أهل الشمال لمدينة تروادة .

حصار تروادة

والثابت أيضا أن تلك الإغارات المختلفة سببت قلقلة عظيمة بين سكان الشرق جميعا ، فاضطربت دولة الحيثيين فى آسيا الصغرى وتحرك أقوام من أهل البحر نحو السواحل المصرية ، ولم يمنعهم عن مصر إلا بأس رمسيس الثالث ، واستولى القوم المعروفون بالفلسطينيين على ساحل فلسطين وعلى ذلك فما حلت سنة ١٢٠٠ ق . م إلا وقد ضعفت الحضارة الكريدية .

أثر الحضارة الكريدية فى الاغريق

كان الاغريق وقت قدومهم متبربرين لا يعرفون كتابة ولا زراعة وكانوا رعاة . ولا بد أنهم تعلموا الكثير من الحضارة الكريدية فأسسوا المدن وخضعوا للملوك وأخذوا بالمعتقدات الدينية الكريدية وخرافاتها .

أثر الفينيقيين

ولا بد أن يكونوا قد تعلموا أيضا من الفينيقيين . وقد تقدم كيف كان الفينيقيون منتشرين اذ ذاك فلا بد أن اتصل الفريقان وقلد الاغريق الفنون والصناعات الفينيقية . وهـذه كانت مصرية أو أشورية أو بابلية الأصل . وعلى ذلك فمصدر الفنّ الاغريق شرقى .

بدء الفن الاغريق والحروف الهجائية

وتعلم الاغريق أيضا حروف الهجاء الفينيقية حوالى عام ٩٠٠ ق . م .

المعتقدات الدينية

أما معتقداتهم الدينية فقد أخذوا الكثير منها عن الكريديين والفينيقيين .

شعر هوميروس ٧٥٠ ق٠م

وقد عرف المؤرخون الكثير عن هؤلاء الاغريق الأول من شعر هوميروس وهو رجل مكفوف البصر من جزيرة خيوس وصف حصار تروادة فى قصة شعرية طويلة . ولم تدون هذه القصة فى أيامه انما كان يتناولها الرواة ويحفظها الناس لشدة إعجابهم بها ؛ وتعرف هذه القصة بالالياذة . وتلحق بها قصة أخرى تنسب أيضا لهوميروس واسمها الاديسية وفيها وصف الشاعر ما جرى لأحد أبطال الحصار بعد الاستيلاء على تروادة إلى أن عاد لبلاده .

الخرافات الاغريقية

وللاغريق أيضا قصص خرافية شائقة كان يرويها الرواة المتنقلون من مدينة لأخرى ويتغنى بها المغنون فى الولائم والاجتماعات .

الآلهة

ومن هذه الأشعار والقصص عرفنا أن الاغريق الأول كانوا يعتقدون أن آلهتهم تقطن جبل المبوس فى تساليا وأنهم كانوا ستة من الذكور وستة من الإناث ، كبيرهم زيوس وهو أبو الآلهة والناس ، ومنهم أپولو إله الموسيقى والنورو افرديتى إلهة الجمال .

الفصل الثالث

نشأة المدن الاغريقية

المدن الاغريقية

لم يكن للاغريق من أول ظهورهم دولة واحدة تجمعهم كلهم فى حكمها ولكن كانت لهم دول كثيرة جدا لا تزيد أرض الدولة منها عن مدينة واحدة . ولكل منها حكومتها وشريعتها وجيشها ومعبدها وعبادتها . وهذا نظام سياسى لا نراه فى وقتنا الحاضر فالدولة الآن تشمل عادة مملكة بأسرها وأحيانا تشمل أقطارا نائية عنها .

لماذا لم تكن للاغريق دولة واحدة؟

ويفسر المؤرخون ذلك بأسباب جغرافية : فبلاد الاغريق جبلية وسواحلها كثيرة الخلجان فكان من الصعب قيام دولة واحدة فيها . والظاهر أن الاغريق ظنوا أن قيام الدولة الواحدة لا يتفق مع الحرية ، وأيدهم فى ظنهم هذا ما رأوه من الاستبداد فى الدول الشرقية العظيمة وبخاصة فى فارس .

مظاهر الوحدة الاغريقية

وليس معنى ذلك أن الاغريق كانوا منفصلين انفصالا تاما بعضهم عن بعض ، فقد مرت بهم أزمات أدت الى اشتراك المدن المختلفة فى جهود واحدة وقامت بينهم الأحلاف من المدن لأغراض الدين والتجارة . وكان مما أظهر الوحدة الاغريقية الألعاب الأولمبية ، وكانت تقام كل أربع سنين مرة ويتبارى فيها اللاعبون من أنحاء البلاد . وقد بلغ من عظم أمرها عندهم أنهم كانوا يؤرخون الحوادث بها .

وللاغريق أيضا لغة واحدة وإن تعددت لهجاتهم .

ولهم أيضا أشعار هوميروس ، وهى تراث الاغريق جميعا يحفظها خاصتهم وعامتهم .

بذلك كله شعر الاغريق أنهم أمة واحدة على الرغم من استقلال مدنهم بعضها عن بعض ، واتخذوا لأنفسهم اسما واحدا هو (الهيلانيين) ، وكانوا فى نظر أنفسهم هم الناس ومن عداهم من الخلق (البرابرة) .

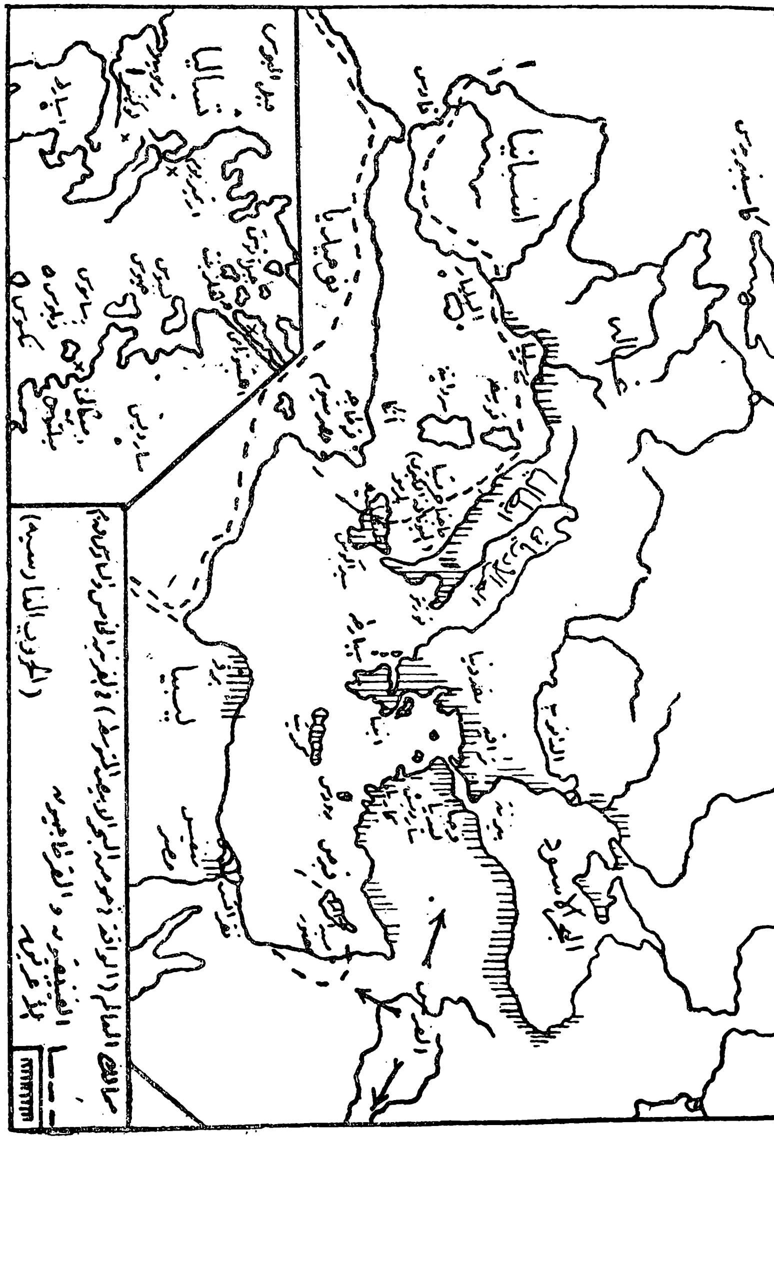
تطور نظام الحكم فى المدن الاغريقية

كان الحكم فى المدن الاغريقية أول الأمر فى يد الملوك . وبعد زمن ألغيت الملكية فى أكثر المدن وانتقل السلطان الى أشراف المدن . ثم تحول حكم الأشراف الى حكم العامة غير الارقاء .

يدل هذا التطور على ما كان من نشاط الحياة السياسية عند الأغريق وعلى انهماكهم جميعا خاصتهم وعامتهم بالاشتغال بمسائل الحكم . الا أن هذا الانهماك لم يكن المميز الوحيد لتاريخهم ، فمن مميزاته العظيمة اتساع الاستعمار الاغريق وارتقاء الحضارة الاغريقية .

الاستعمار الاغريق

دفع نزاع الاحزاب السياسـية فى المدن الاغريق نحو الهجرة الى أرض غربية . ودفعتهم التجارة أيضا نحو النزوح عن الوطن.فأسسوا المستعمرات على سواحل البحر الأسود والبحر الأبيض المتوسط وفى جزره .



ومن أخص ما يذكر عن الاستعمار الاغريقى أن المستعمرات كانت مستقلة عن المدن التى أنشأتها . وقد نشطت التجارة باتساع نطاق الاستعمار وأثرى الاغريق ، وتطلبوا الجديد فى الفن والصناعة وانتحوا فيهما نحوا لم يسبقهم اليه أحد .

الفصل الرابع

الكفاح بين الفرس والاغريق

٥٠٠ — ٤٧٩ ق . م

تقدّم القول كيف فتح كورش ملك الفرس مملكة ليديا الاغريقية فى عام ٥٤٦ ق.م. وقد كان من أثر ذلك أن تقابل الفرس والاغريق فى آسيا الصغرى وجها لوجه ، وذلك لأن اخضاع الليديين مكن الفرس من المستعمرات الاغريقية فى آسيا الصغرى .

ثم مدّ قمبيز حكم دولته فشملت المدن الفينيقية وقبرص ومصر ومستعمرات الاغريق فى افريقية .

وفى عام ٥١٣ ق . م . تقدّم الفرس نحو أوربا فغزا دارا تراقيا فى شبه جزيرة البلقان .

بذلك كله أصبح الفرس يحيطون بالاغريق احاطة السوار بالمعصم ورأى الاغريق أن أعداءهم لا يهددون متاجرهم فقط بل ان استقلالهم وحضارتهم باتا تحت رحمة ملك الشرق العظيم . فكافحوه لا للنفوذ والغنى ولكن للدفاع عن أعز ما تملك أمة .

ثورة الاغريق فى آسيا الصغرى

بدأ الكفاح لما قامت المدن الاغريقية فى وجه الفرس فى عام ٥٠٠ ق.م وأرسل الاثينيون مددا للثوار نجح فى تخليص سرديس عام ٤٩٩ ق.م هاج

ذلك دارا فصمم على تأديب الاغريق ، وبلغ من عزمه أن أمر أحد أتباعه ان يكرر أمامه كل يوم : "مولاى ! لا تنس الاثينيين" .

اخماد الثورة

وبعد عراك ست سنين تمكن دارا من اخماد الثورة فى آسيا الصغرى وخرب المدن وسبى أهلها ، وأعد العدة بعد ذلك لعقاب الاغريق أنفسهم .

الحملة الفارسية الأولى عام ٤٩٢ ق.م

قامت الحملة الفارسية الأولى فى عام ٤٩٢ ق . م . ولكن الحظ خدم الاغريق فثارت عاصفة شتتت السفن الفارسية وأفسدت تدبير دارا .

وبعد ذلك بسنتين أعاد دارا الكرة ، ونجح فى انزال جيشه عند ماراثون وتقابل الجيشان فى سهل ماراثون .

الحملة الثانية عام ٤٩٠ ق.م ماراثون

لم يكن للاثينيين فى تلك الواقعة من مساعد سوى مدينة بلاتيه الصغيرة وكانوا أقل من الفرس عددا ، ولكن كان لهم فى ملتيادس قائد ماهر . وكانوا على عكس الفرس شعبا حرا يحكم نفسه بنفسه وكانوا على عكس الفرس أيضا يحاربون لاللفتح والغلب ولكن للدفاع عن وطنهم وأعراضهم وحريتهم .

انتصر الاغريق فى ماراثون . وقد قدر هيرودوت خسارة الفرس بستة آلاف رجل والاغريق بمائتين .

ولانتصار الاغريق أثر كبير فى تاريخ العالم : إذ أن ذلك الانتصار حفظ لهم حريتهم ومكنهم من توريث العالم كله من غرب وشرق آراءهم فى السياسة والدين والعلم والأدب والفن والفلسفة . ويؤيد هذا الانتصار رأى القائلين بأن حسن النظام والحماسة الوطنية قد يبلغان مالا تبلغه كثرة العدد وكمال العدة .

الحملة الثالثة عام ٤٨٠ ق.م تموستوكليس

مات دارا قبل أن يثأر لنفسه ، فقام ابنه اجزر كسيس بحملة فى عام ٤٨٠ ق.م وكان الاغريق فى تلك الأثناء قد أعدوا عدتهم ؛ وذلك أن أحد كبار ساستهم ثموستوكليس تمكن من اقناع الاثينيين بضرورة إعداد قوة بحرية كبيرة حتى تكون الحرب برا وبحرا .

واقعة ترمو بولية

تقدم الفرس برا نحو أثينا ولم يبق عليهم للوصول اليها إلا اجتياز مضيق من الأرض بين الجبال والبحار . ذلك هو مضيق ترمو بولية . وقد وقف لحراسته ليونيداس ملك اسبرطة . ولكن خائنا من الاغريق دل الفرس على مسالك فى الجبال تمكنوا بها من الإحداق بليونيداس وجنده ، وتركه معظم رجاله ولم يبق معه إلا ثلاثمائة اسبرطى قاوم بهم الآلاف من الفرس إلى أن فنوا جميعا وتقدم الفرس على أثينا واستولوا عليها ودمروها .

واقعة سلاميس

وهنا ظهرت حكمة تموستوكليس . فان السفن الاثينية دمرت الأسطول الفارسى عند سلاميس . وعاد اجزركسيس الى بلاده موليا القيادة مردونيوس .

واقعة بلاتيه

وفى العام التالى استأنف مردونيوس القتال ، فانتصر عليه الاغريق انتصارا حاسما فى واقعة بلاتيه حيث قتل مردونيوس فى سنة ٤٧٩ ق.م.

واقعة ميكالى

وفى تلك السنة أيضا انتصر الاغريق بحرا فى واقعة ميكالى . وبعدها عدل الفرس تماما عن إعادة الكرة واحتفظ الاغريق باستقلالهم .

الفصل الخامس

أثينا فى عصر بريكليس

أثينا بعد الحروب الفارسية

اشترك الاغريق كلهم فى الدفاع عن بلادهم ، ولكن أثقل الأعباء كان على أثينا . فلا عجب إذا أصبح لها بعد الانتصار النهائى على الفرس مركز خاص ورياسة على المدن الاغريقية .

بريكليس

وقد ظهر فيها فى هذه الفترة سياسى عظيم ، هو بريكليس وكانت مدة زعامته لأثينا (من ٤٦٠ الى ٤٣٠ ق . م) عصرا معدودا .

أثينا فى عصر بريكليس الديموقراطية

حول بريكليس الحكم فى اثينا الى ديموقراطية تامة ، بجرد مجلس الشيوخ من السلطة ووضعها فى مجلس من خمسمائة عضو منقسمين الى عشرة أقسام كل منها مكون من خمسين رجلا وتتناوب الأقسام العشرة الحكم .


(شكل ١٨ — بريكليس)

وقرر أيضا أن يكون التوظف بالاقتراع ، فمن خدمه الحظ فيه نال وظيفة . واستثنى من ذلك النظام قيادة الجيش وقت الحرب ولكنه لم يستثن منه القضاء .

وعدا ذلك كان هناك مجلس عام لكل الاحرار اشتراك فيه يجتمع ثلاث مرات فى الشهر الواحد ويرأسه بريكليس .

وكان للاثينيين شغف شديد بالمناقشات السياسية وتقدير كبير للفصاحة فى الخطابة ، فكان يسود الجم الغفير منهم فى اجتماعات المجلس الانتباه التام وعلى الأخص اذا كان المتكلم بريكليس وقد بلغ ما بلغ اليه بمقدرته الخطابية.

موازنة بين الديموقراطية الأثينية والديموقراطيات الحديثة

تقوم الديموقراطيات الحديثة فى ممالك قد يبلغ سكانها الملايين مثل انجلترا وفرنسا والولايات المتحدة على حين كانت الديموقراطية الاثينية لا يزيد عدد سكانها عن بضعة آلاف . فعلى ذلك لا يوجد فى الوقت الحاضر مجالس عامة كالذى وصفناه فى اثينا ، إذ لا يمكن لملايين الانجليز والفرنسيين أن يجتمعوا فى مكان واحد كما أمكن آلاف الاثينيين . وكل ما يمكنهم عمله هو أن ينتخبوا مندوبين عنهم لا يزيدون عن بضع مئات ويتكلمون بلسان قومهم. فعلى ذلك تقوم الديموقراطيات الحديثة على فكرة التمثيل السياسى .

وتختلف الديموقراطيات الحديثة أيضا عن الديموقراطية فى اثينا فى أمر التوظيف : فالاقتراع قد يؤدى الى حلول غير الأكفاء فى وظائف الدولة وعلى الأخص فى الوقت الحاضر الذى كثرت فيه أعمال الحكومات واستلزم

تشعب الادارة كفاية خاصة فى الموظفين . فعلى ذلك لا يقترع فى الديموقراطيات الحاضرة على وظائف الدولة ولا على مناصب القضاء .

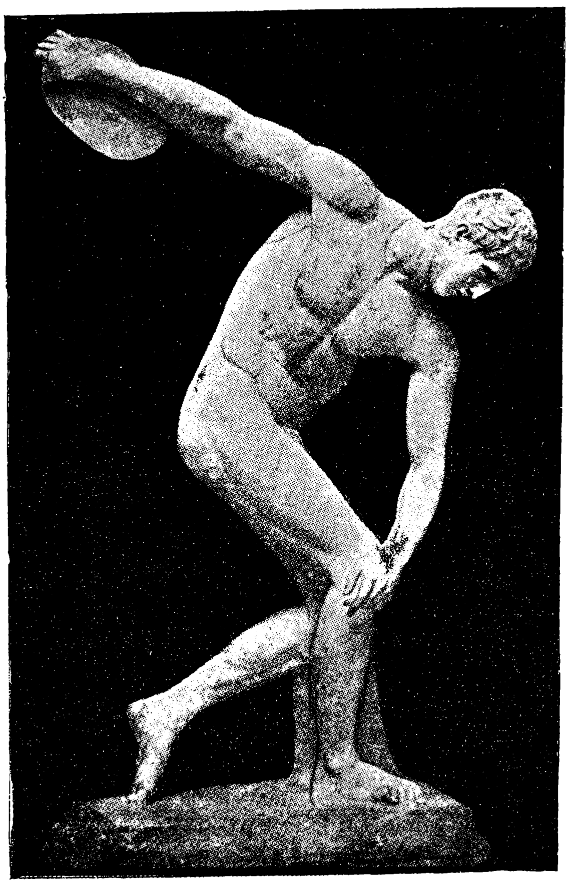
وقد تمكن الاثينيون من القيام بنصيبهم فى الحكم لوجود الرق بينهم . فيلزمنا تذكر أن الأحرار فى اثينا كانوا قليلين اذا قرنوا بالأرقاء المحرومين من كل حق سياسى . آما الديموقراطيات الحديثة فليس فيها استرقاق أبدا .

الحضارة الأثينية فى عهد بريكليس

لم تظهر عيوب الديموقراطية الاثينية أيام بريكليس لعظم نفوذه السياسى ولحسن قيادته لها . وقد أخفاها أيضا ما بلغه الاثينيون أيامه فى الفنون

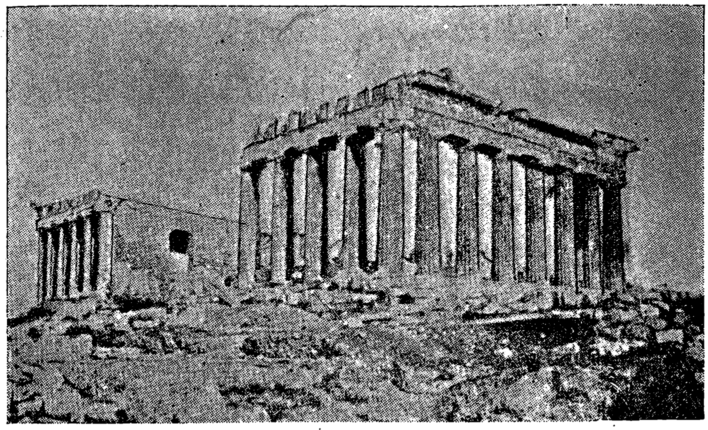
فيدياس

فبنوا المعابد الفخمة . ومن أشهرها البارثينون الذى زينه فيدياس بأجمل المناظر

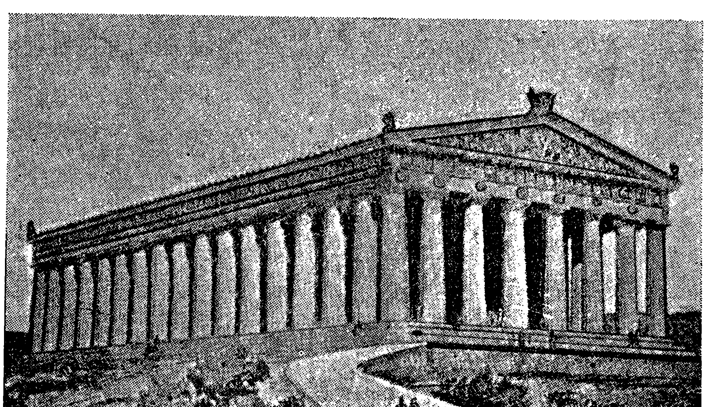


(شكل ١٩ — قاذف «القرص» : مثال من الفن اليونانى)

وهذا المعبد فوق تل عال مشرف على أثينا يعرف بالأكروبوليس ، وجعلوا خارجه تمثالا للمعبودة أثينا ارتفاعه سبعون قدما يرى على مسافة كبيرة .



(شكل ٢٠ — البارثينون فى حالته الراهنة)



(شكل ٢١ — البارثينون كما كان)

واهتم بريكليس اكبر اهتمام بالتمثيل لما فيه من تربية الذوق السليم ، فكان بالقرب من الاكروبوليس مسرح ديونيسيوس وهو عظيم يسع ٣٠,٠٠٠ شخص .

وكانت تمثل فيه الروايات التى وضعها اسكيلوس وسوفوكليس ويوربيديس واريستوفانيس . ولا يزال الناس يعجبون اعجابا كبيرا بما كتبه هؤلاء الرجال العظام .

الفصل السادس

النهضة الفكرية الاغريقية فى القرن الخامس

يمتاز القرن الخامس قبل الميلاد على سائر العصور بالنهضة الفكرية الاغريقية . فاشتهر فيه من مؤلفى الروايات التمثيلية أربعة : اسكيلس وسوفوكليس ويوريبيدس وأريستوفانيس .

اسكايس ٥٢٥ — ٤٦٥ ق ٠م

عاش اسكيلس فى ذلك العصر العظيم عصر الجهاد الوطنى ضد فارس وقد شهد بنفسه واقعتى ماراثون وسلاميس .

وأشهر رواياته ثلاث : «الفرس» و «اجاممنون» و «بروموثيوس المغلول» وموضوعها كلها كيف يحل غضب الآلهة بمن تكبر وبغى . فوصف فى «الفرس» مثلا كيف أذلت الآلهة اجزركسيس وخلصت أبناء هيلاس .

سوفوكليس ٤٩٦ — ٤٠٥ ق ٠م

وقد ولد سوفوكليس بعد اسكيلس وفى حداثة سنه احرز قصب السبق عليه فى مباراة أدبية . يقول بلوتارخس ان ذلك ساء اسكيلس وحدا به الى النزوح الى صقلية . ومن أهم روايات سوفوكليس « اديبوس تيرانوس و « انتيجونى » وموضوعها قصص ملوك طيبة الاول وفلسفة سوفوكليس لا تختلف عن فلسفة اسكيلس .

يوريبيديس
٤٥٠ — ٤٠٦
ق . م

وكان يوريبيديس معاصرا لسوفوكليس وكان احب الكتاب للشعب وطبقت شهرته آفاق العالم الاغريقي ، وكان أجرأ من زميليه فشك فى الديانات القائمة وفى قدرة الآلهة وفى عملها على خير الانسان .

اريستوفانيس
٤٥٠ — ٣٨٠
ق . م

وقد تجلت روح الشك فى اريستوفانيس . واظهر مافى رواياته قدرته على السخرية : فسخر من كل من أراد حتى من الآلهة ، وتهكم على يوريبيدس نفسه . ولكنه اختص بأحد سهامه الزعماء الذين ظهروا بعد موت بريكليس وبين أن فصاحتهم جعجعة بلا طحن ، وكشف عن ضعة أصلهم وسوء رأيهم وتذبذبهم . وأشهر رواياته « السحب » و « الفرسان » و « العصافير » .

المؤرخون

وقد ظهر من المؤرخين هيرودوت وثيوسيديس وزينوفون .

هيرودويت
٤٨٤ — ٤٢٥
ق . م

أما هيرودوت فقد سبق الكلام عليه ، ويختلف عنه ثيوسيديس مؤرخ الحرب بين أثينا واسبرطة اختلافا كبيرا . فبينما كان همّ هيرودوت جمع الأخبار

ثيوسيديس
٤٧١ — ٤٠٠
ق . م

وعلى الأخص الغريب منها كان أكبر ماعنى به ثيوسيديس تحرى الأسباب وضبط الوقائع واستخلاص عبرها مع حسن تبويب وبلاغة فى التعبير .

زينوفون
٤٤٥ — ٣٥٥
ق . م

عاش زينوفون فى عصر يوريبيديس وكان قائدا كما كان كاتبا . خرج فى عام ٤٠٠ ق . م مع جماعة من الاغريق يبلغون عشرة آلاف رجل ودخلوا فى خدمة أحد الأمراء الفارسيين وكان فى حرب مع مليكه ، وانتهى الأمر بهم الى الجلاء عن فارس فتقهقروا حتى منابع الدجلة فى الجبال ، ومنها وصلوا سواحل البحر الأسود بعد أن قاسوا هولا كبيرا . وقد وصف ذلك التقهقر فى كتاب قيم . وله كتاب آخر خلد فيه ذكرى الفيلسوف سقراط .

الفلسفة

وللاغريق فى تاريخ الفلسفة مقام خاص .

فيثاغورس
٥٨٠ — ٥٠٠
ق . م

من فلاسفتهم الأول فيثاغورس ، وكان يعلم أن الأرض كرية وأنها تدور حول الشمس .

أناكساجوراس
٥٠٠ — ٤٢٧
ق . م

ومن الفلاسفة اناكساجوراس وقد شك فى وجود الآلهة وقرر أن العقل هو منظم هذا الكون . وبحث آخرون فى أصل المادة والعالم وجاء فى بحثهم كلام على التطوّر بين المخلوقات .

السفسطائيون

ومن الفلاسفة طائفة السفسطائيين وكان يشتغلون بتعليم اللغة والخطابة ولهم آراء خاصة فى الفلسفة . وقد مهدوا لظهور أكبر فلاسفة العالم القديم : سقراط وأفلاطون وأرسطو .

سقراط

كانت طريقة سقراط فى التعليم الحوار ، وكان دائما يحث على أن يسعى الانسان الى معرفة كنه نفسه قبل أى شيء آخر ، ويهزأ بمن يقبل الأشياء على علاتها دون أن يحكم العقل . وكان سقراط يعتقد فى خلود النفس وفى أن الكون يدبره إله . وسما سقراط فى تعليمه الخلق سموا كبيرا فلا فرق بين الأخلاق التى حث عليها والأخلاق التى حضت عليها الديانات العظمى .



(شكل ٢٢ — سقراط)

واتهم سقراط فى آخر أيامه بتضليل الشباب وحكم عليه بشرب كأس من السم ومات .

أفلاطون
٤٢٧ — ٣٤٧
ق . م

ومن تلاميذه أفلاطون ، ترك بلاد الاغريق عند موت معلمه وجال فى بلاد الشرق وبعد عودته أخذ فى تعليم الفلسفة بطريقة الحوار .

كتاب الجمهورية

ومن مؤلفاته كتاب الجمهورية وهو من الكتب الخالدة .

ارسطو
٣٨٤ — ٣٢٢
ق . م

وهو أكبر فلاسفة الحضارة القديمة ، وكان لآرائه تأثير كبير فى فلسفة الشرق والغرب . ويعرف عند العرب باسم المعلم الأول . وقد بحث فى كل فروع الفلسفة من أخلاق وسياسة وعلوم طبيعية وأدبية وهكذا . وكان مربى الاسكندر الأكبر .

الفصل السابع

ظهور مقدونيا وتغلبها على المدن الاغريقية

فيليب والاسكندر الأكبر

الحرب بين أثينا واسبرطة

حاولت أثينا تحويل مركزها بين المدن الاغريقية من زعامة فيها الى سيطرة تامة عليها . وقد أثارت هذه المحاولة حربا طويلة بينها وبين اسبرطة دامت من ٤٣١ الى ٤٠٤ ق . م وقد شطرت تلك الحرب الاغريق شطرين . وانتهت بضعف المدن الاغريقية كلها . وعجزها عن صد المقدونيين .

مقدونيا

ومقدونيا بلاد جبلية تقع شمالى بلاد الاغريق وفيها سهول خصبة ، وسكانها أشداء ، لغتهم اغريقية وان كانوا فى نظر الاغريق أشبه بالأجانب عنهم لقلة رفاهيتهم وحضارتهم .

فليب الثانى ٣٦٠ — ٣٣٦ ق . م

مضى ملكها فليب الثانى صباه فى مدينة طيبة — احدى المدن الاغريقية — وتحضر بالحضارة الاغريقة . وأدرك أيضا عن كثب ما عليه المدن الاغريقية من انقسام وما ساد بينها من شقاق . ولما تقلد الحكم فى بلاده عزم أولا على تحضير قومه وثانيا على اخضاع سائر الاغريق لحكمه ، وطمع فى آخر الأمر أن يقوم بحرب عظيمة ضد فارس فيغزو أرضها ويذلها .

الجيش المقدونى

ولتحقيق ذلك كون جيشا فريدا فى نوعه إذ كان جيشا نظاميا يختلف عن جيوش المدن الاغريقية المكونة من متطوعين يعودون لمنازلهم اذا انتهت الحرب التى تطوعوا فيها . ثم عبأ هذا الجيش تعبئة تعلمها من ابامينونداس ، وبها جعل قلب الفرقة الواحدة مكونا من ٥٠٠٠ جندى مصطفين صفوفا فى كل منها ١٦ رجلا ومسلحين برماح طويلة ، ووضع الفرسان فى الميمنة والميسرة . وكان فى الجيش أربع فرق من هذا النوع . وقد أحسن تدريبها

حتى صارت الفرق تتحرك كأنها فرقة واحدة . واهتم أيضا بآلات الحصار وكان الاغريق لا يستعملونها وان كانت قد استعملها الأشوريون قديما . وبهذا الجيش دوخ الاسكندر العالم .



(شكل ٢٣ — دیموسینیس)

أثينا وفليب

بدأ فليب بالمستعمرات الاغريقية فى شمالى بحر الأرخبيل وتغلب عليها فأثار ذلك الاغريق . وكان فليب يحب الاثينيين فعرض عليهم صداقته ، ولكن الاثينيين لم يتفقوا على اجابة طلبه فبعضهم مال الى اكتساب وده وبعضهم نفر منه وعده عدوا يريد استعباد الاغريق .

ديموسينيس

وكان على هذا الرأى ديموسينيس أخطب خطباء الاغريق . وله فى استنفار قومه خطب رنانة اجتذبهم بها الى رأيه ويعتبرها المؤرخون من أبلغ ما خلف الاغريق ، ويتخذها الخطباء نموذجا ينسجون على منواله .

واقعة كيرونيا ٣٣٨ ق ٠ م

اتحدت أثينا وطيبة على فليب وقامت الحرب ، لكنه هزمهم فى واقعة كيرونيا عام ٣٣٨ ق . م وكانت حاسمة . ولم يبق أمامه الا التغلب على اسبرطة .



(شكل ٢٤ — الاسكندر الأكبر)

وقد دعا فليب الاغريق الى مؤتمر فى كورنته ليبسط لمندوبيهم ما اعتزم عليه من الاغارة على فارس ولكنه قتل فى عام ٣٣٦ ق . م . قبل أن يتم هذا المشروع .

الاسكندر

وخلفه ابنه الأسكندر وحقق كل مشروعات أبيه واكتسب بين عظماء الفاتحين اسما خالدا . كانت سنه وقت توليه العرش عشرين سنة . وكان ارسطو قد باشر تربيته منذ الثالثة عشرة من عمره . وقد قرأ الاسكندر كل ما خلفه الاغريق من أدب وشب متشبعا بحضارتهم شديد التحمس لنشرها فى الخافقين .

ثورة طيبة

أول ما تولى العرش أصغره الاغريق وثارت عليه مدينة طيبة ولكنه أخضعها ودمرها تماما وسبى أهلها وألقى بذلك على الاغريق درسا قاسيا .

الاغارة على آسيا
واقعة نهر جرانيكوس ٣٣٤ ق.م
وواقعة نهر أسس وحصار صور

ولما تم خضوع الاغريق سار فى ربيع ٣٣٤ ق . م . نحو آسيا فعبر المضيقين البوسفور والدردنيل وهزم جيشا فارسيا عند نهر جرانيكوس واستولى بذلك على المستعمرات الاغريقة فى آسيا الصغرى . ثم توغل فيها والتقى بالفرس مرة ثانية عند نهر اسس وكان الفرس يقودهم ملكهم دارا الثالث ولكن الاسكندر انتصر عليهم انتصارا تاما وفر دارا الى بلاده ليعد جيشا جديدا واتجه الاسكندر جنوبا وأخضع المدن الفينيقية . وقد قاومته مدينة صور ولم تسلم الا بعد حصار طويل .

فتح مصر وتأسيس الاسكندرية

ثم سار نحو مصر وكانت اذ ذاك تحت حكم الفرس . وقد تمكن من فتحها بسهولة اذ لم ير المصريون ضررا فى الانتقال من حكم الفرس الى حكم المقدونيين . وفى مصر أسس مدينة الاسكندرية .

واقعة اربل
٣٣١ ق.م

ثم ترك مصر وارتحل الى سوريا ومنها اتجه شرقا نحو فارس . وقد عبر الدجلة قرب اطلال نينوى وهزم الفرس مرة ثالثة فى واقعة اربل . وهرب ملكهم دارا ولكن قتله أحد رجاله .

انتصر الاسكندر ومزق ملك فارس ، فكأنه قد ثأر بذلك مما لحق الاغريق من دارا واجزركسيس .

ولهذا الانتصار أثر كبير فقد مهد الطريق لنشر الحضارة الاغريقية فى بلاد الشرق .

توغل الاسكندر فى فارس وحل محل ملوكها واستولى على نفائسهم وخزائنهم . ولم يكتف بذلك بل طمع فى الاستيلاء على الهند نفسها . ونجح فى التغلب على أفغانستان ونزل بجيوشه على السند ، ولكن رجاله أبوا التقدم لفرط ما لاقوا من التعب ، فاضطر الى الرجوع بهم .

تنظيم الملك

عاد الى بابل فى عام ٣٢٣ ق . م . بعد سبع سنين قضاها فى فارس والهند وبدأ ينظم ملكه .

اتخذ بابل عاصمته وكان يرمى الى إنشاء ملك مصطبغ بالصبغتين الاغريقية والشرقية فتزوج ببنت دارا الثالث وتبعه عسكره فتزوج كثيرمنهم بفارسيات ووظف الفرس فى وظائف الدولة المختلفة .

وكان الاسكندر يطمع فى مد ملكه حتى يشمل غربى البحر الأبيض المتوسط . وبدأ فى صنع السفن اللازمة لاخضاع إيطاليا وصقلية وقرطاجنة . ولكن انتابته حمى ومات فى بابل فى الثالثة والثلاثين من عمره قبل أن يقوم بذلك .

انقسام ملك الاسكندر

وبعد موته بقليل انقسم ملكه أقساما ثلاثة تولى الأمر فيها قواده إذ كان ابنه صغيرا . وكانت هذه الأقسام : مقدونيا وسوريا ومصر التى اختص بها بطليموس .

الفصل الثامن

انتشار الحضارة الاغريقية

دولة البطالسة

أهم مانتج من فتوح الاسكندر الأكبر انتشار الحضارة الاغريقية فى بلدان الشرق القديم ، وكان لتلك الحضارة فى الشرق مراكز أهمها الاسكندرية عاصمة البطالسة الذين استقلوا بمصر وأعادوا لها رخاءها المادى وجعلوا لها اسما بين الدول . وسيفرد للبطالسة فصل خاص .

جامعة أثينا
زينو والرواقيون

وكانت أثينا أيضا مركزا آخر من مراكز الحضارة ، قامت فيها جامعة كبيرة ، واشتهرت فيها طائفة من الفلاسـفة يعرفون باسم الرواقيين وكبيرهم الفيلسوف زينو . وقد حث زينو على كبح العواطف واستنكر الرق والقسوة وكان لتعليمه أثر كبير فى التاريخ .

ابيقور

ومن فلاسفة أثينا أيضا ابيقور وقد اجتذب هؤلاء المعلمون التلاميذ من كل صوب ، واكتسبت أثينا فى أيام محنتها السـياسية نفوذا فى العـالم العـلمى ، وحققت بذلك ما كان يرجوه بريكليس لها .

مدينة برجامن

برجامن مدينـة من مدن أسيا الصغرى نالت اسـتقلالها عن حكم مملكة سوريا وصارت مركزا من مراكز الحضارة الاغريقية ، وجمعت حكومتها مكتبة عظيمة وأقام بها عدد من رجال الفن خلفوا تماثيل قيمة .

جزيرة رودس

واشتهرت جزيرة رودس أيضا برجال الفن فيها ولكن لسوء الحظ لم يبق الا القليل من آثارهم .

براكسيليس
فى أثينا

وكذلك أثينا كان فيها أيضا نهضة فنية من أعظم رجالها براكسيليس .

ملك السلوكيين
فى سوريا

استقل سلوكس أحد قواد الاسكندر بسوريا وقامت فيها أسرة من نسله . لم يكن لسوريا ما كان لمصر من الشأن أيام البطالسة ولكن السـلوكيين اتبعوا سـياسة الاسكندر ونشروا الحضارة الاغريقيـة نحو الشرق فانشئوا المدن فى أسـيا الصغرى وأرض الفرات والدجلة وفارس حتى حدود الهنـد على نمط المستعمرات الاغريقية الأولى . وكانت هذه المدن من وسائل نشر الحضارة .

مملكة مقدونيا

كانت مقـدونيا أقل من مصر وسوريا . ومن أشهر ملوكها أنتيجونيس الثانى الذى دفع عن بلاده خطرا شديدا ، فقد رد عنها اغارة أقوام متبربرين قدموا من فرنسا واسمهم الغالة وذلك فى عام ٢٨٠ ق.م وحكم خلفاؤه بعده الى أن سقطت مقدونيا فى أيدى الرومان .

بلاد الاغريق

أما المدن الاغريقية فى تلك الأثناء فقد قامت بينها أحلاف من المدن تشبه الأحلاف التى قامت فى سويسرا فى العصور الوسـطى . ولبثت كذلك الى أن سقطت كلها ودخلت فى حكم الرومان .

الفصل التاسع

دولة البطالسة

مميزات عصر البطالسة

لعصر البطالسة مميزات خاصة تجعله مغايرا لعصور الفراعنة : أول تلك المميزات أن الأسرة الحاكمة لم تكن من أصل مصرى ، بل كانت اغريقية . ولكن ليس معنى ذلك أن مصر لم تكن دولة مستقلة أو كان لغيرها سيادة عليها ، إذ أن أصل الأسرة الحاكمة لا يهم فى ذلك ، وهذه انجلترا لم يحكمها منذ الفتح النرمندى فى عام ١٠٦٦م الى وقتنا الحاضر ملوك من أصل انجليزى . اذن من الخطأ أن نضع عصر البطالسة فى مصاف العصور التى حكم مصر فى أثنائها ولاة من قبل فارس أو روما أو الخلافة الأموية والعباسية أو الدولة العثمانية بل يجب اعتباره عصر استقلال كالعصور التى سبقت الفتح الفارسى فى عام ٥٢٥ ق.م وحكم مصر فيها ملوك مصريون .

ومن تلك المميزات ظهور العنصر الاغريقى فى حضارة مصر أيامهم . حقيقة لم يكن ذلك أول عهد مصر بالاغريق ، فقد عرفتهم أيام ملوكها ابسماتيك وخلفائه ، ولكن لم يكونوا اذ ذاك الا تجارا أو جندا مرتزقة ، ولم تكن مصر من مراكز حضارتهم ؛ أما فى أيام البطالسة فقد قامت لهم فيها حضارة باهرة .

ومن الموضوعات المهمة فى تاريخ البطالسة دراسة علاقة العنصرين المصرى والاغريقى أحدهما بالآخر والبحث فى سياسة الملوك إزاء المصريين وفى موقف المصريين إزاء الحضارة الاغريقية .

فتح الاسكندر مصر

قبيل ذلك الفتح كانت مصر ولاية فارسية ، ولم يكن الحكم الفارسى سيئا أو قاسيا كما يظن الناس ، ولكن المصريين لم يميلوا للفرس لسبب مهم هو أن الفرس لم يحترموا معتقدات المصريين الدينية احتراما كافيا وان كانوا لم يحاولوا تحويلهم الى معتقدات أخرى . وفى هذا يختلف عنهم الاسكندر والبطالسة اختلافا تاما .

ضعف الفرس فى مصر بعد ما أصاب دولتهم من الهزائم على يد الاسكندر فلما وصل هذا الفاتح العظيم الى حدود مصر الشرقية لم تعترضه مقاومة تذكر ووصل الى منف وقرب القرابين الى أبيس وفتاح .

وبعد ذلك ارتحل الى واحة سيوه وزار معبد أمون فيها . وقد يتساءل الإنسان لِمَ لَم يذهب لطيبة مقر عبادة أمون ويتمكن بذلك من أن يرى بنفسه حالة الوادى كله . والظاهر أنه أحب ألا يثير الحسد فى نفس كهنة منف وأنه أحب أن يزور الواحة ليكون على علم بحدود مصر الغربية ولكى يمر بنوقراطيس المستعمرة الاغريقية .

تأليه الاسكندر

وفى سيوه دخل المعبد وقرب القرابين للمعبود ولقبه الكهنة ابن آمون وقد قلده فى ذلك البطالسة بعده ولم يكن تأليه الملوك أو على الأقل الزعم أنهم من نسل الآلهة أمرا شرقيا فقط فقد كان معروفا للاغريق فى بلادهم .

تأسيس الاسكندرية

وعند عودته من سيوه اختط مدينة الاسكندرية بأن وصل بين جزيرة صغيرة قريبة من الأرض وقرية صغيرة على الساحل اسمها راكوتيس فتكون بذلك مرسيان أحدهما شرقى والآخر غربى .

وكان بالقرب من راكوتيس انخفاض من الأرض موضع بحيرة مريوط يملؤه ماء النيل وقت الفيضان فكانت الاسكندرية بذلك ميناء نهرية أيضا .

وبعد الفراغ من ذلك عاد إلى منف عن طريق الصحراء واتجه نحو الشرق لاتمام فتوحه .

بطليموس الأول

ترك الاسكندر عند وفاته ابنا صغيرا وأخا غير شقيق واقتسم قواده دولته فحكم مصر بطليموس أولا باسم ابن الاسكندر وأخيه . وفى سنة ٣٠٥ ق . م لقب بملك مصر .

والمعروف عن بطليموس أنه كان رجلا حازما سديد الرأى غير كبير الاطماع ، فكان حكمه بتلك الصفات موفقا .

فتوحه

وقد قام بطليموس بحروب كثيرة انتهت باستر داده بعض البلاد فى فلسطين وباستيلائه على جزيرة قبرص ، ودنت له السيادة البحرية فى البحر الأبيض المتوسط. وكان من شأن ذلك ارتقاء التجارة المصرية فى ذلك البحر.

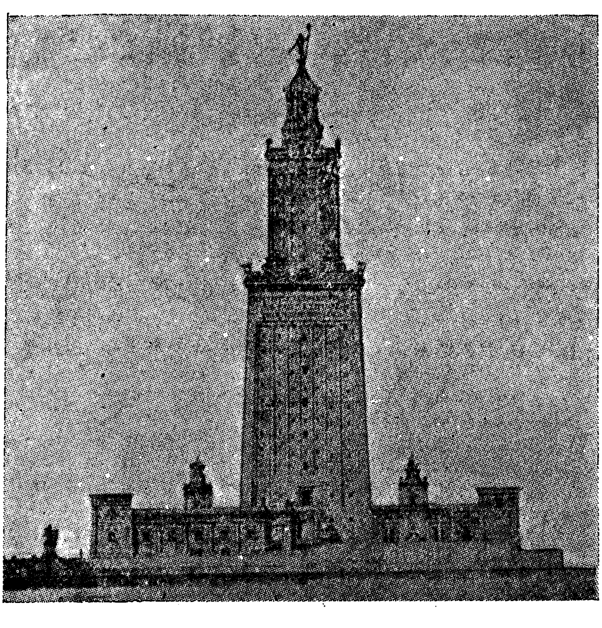
سياسته الداخلية

لم تمنع تلك الفتوح بطليموس من الاهتمام بتنظيم بلاده وترقية شؤونها ويقال إنه أسس دار كتب الاسكندرية ودار تحفها أو كان على الأقل صاحب المشروع .

ولم يكن بطليموس مولعا بالنظم السياسية الأغريقية ، بمجالس شيوخها ومجالسها العامة ، فلم يمنح أهل الاسكندرية دستورا من ذلك النوع ، ولكنه جعل لهم مركزا يمتاز بعض الشيء عن المدن الأخرى .

بطليموس الثانى
٢٨٥ — ٢٤٧
ق٠م

ولم تحدث فى مدة خلفه بطليموس الثانى حروب مهمة فانصرف الى تنمية ثروة البلاد ونشر العلوم .



(شكل ٢٥ — منارة الاسكندرية كما كانت)

التجارة

جدد القناة القديمة الواصلة بين النيل والبحر الأحمر وأعاد طريق القوافل الموصل بين البحر الأحمر والنيل عند قفط . فتقدمت تجارة مصر فى البحر الأبيض المتوسط وفى البحار الشرقية مع بلاد العرب والهند والأحباش .

منارة الاسكندرية ٢٧٩ ق٠م

وقد بنى لهداية السفن منارة الاسكندرية المشهورة فى التاريخ وقد وصفها سترابون بأنها كانت برجا ذا طبقات من حجر أبيض يشبه الرخام . وذكر يوسيفوس أن نورها كان يرى ليلا على بعد ثلاثة وثلاثين ميلا من الشاطئ وكانت تبلغ من الارتفاع مائة متر . وقد دمرها زلزال فى عام ١٣٠٧م .

دار الكتب ودار التحف بالاسكندرية

بنى بطليموس الثانى أو وسع هاتين الدارين العظيمتين وأصبحت بهما الاسكندرية أكبر مراكز الحضارة الأغريقية .

ترجمة التوراة عن العبرية الى الاغريقية

ويقال إنه شجع ترجمة التوراة من العبرية الى الاغريقية ، والظاهر أنه لم يكن شيء من ذلك وأن اليهود قاموا بذلك العمل من تلقاء أنفسهم لما وجدوا مواطنيهم فى الاسكندرية قد نسوا العبرانية .

تاريخ مانيثون

ويقال أيضا إنه حمل مانيثون على كتابة تاريخه المشهور لملوك مصر القدماء

سياسته ازاء المصريين والاغريق

ولا يصح أن نستخلص من ذلك أن بطليموس الثانى وضع نصب عينيه إحياء الحضارة المصرية القديمة أو مزج العنصرين المصرى والأغريق فى حضارة جديدة .

ولكن ذلك لا ينافى اهتمامه الشديد باكتساب حب المصريين وتنمية ثروة مصر فأقام المبانى وشيد الهياكل لمعبوداتهم ومن أشهر مبانيه جزء من قصر أنس الوجود المعروف .

ومعنى الإكثار من المبانى العظيمة أن الشعب يسترد جزءا كبيرا مما يدفعه من الضرائب التى تجمعها الحكومة . ومعناه أيضا تربية الشعب تربية فنية عظيمة . وليس هناك ما يدل على أن بطليموس سخر الناس فى اقامة مبانيه .

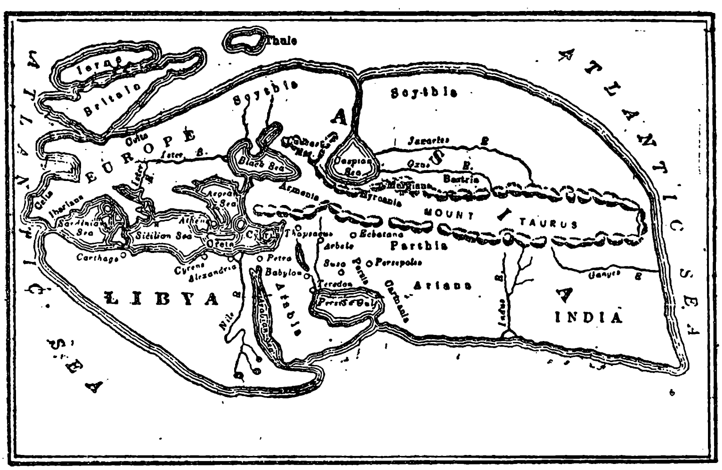
وقد اهتم بطليموس أيضا بالأغريق وأقطع جنوده منهم أرضا فى الفيوم ولكنه لم يظلم المصريين لأجلهم . فليس هناك ما يدل على أنه انتزع الأرض فى الفيوم من أصحابها أو على وقوع النزاع بين العنصرين فى ذلك الأقليم .

بطليموس الثالث
اضمحلال البطالسة

وفى أيام بطليموس الثـالث امتد ملك مصر فشمل برقـة أو طرابلس وسوريا . وبلاد النوبة . ومن مبانى هذا الملك الشهيرة معبد أدفو ودندرة . ولكن ذلك الملك الواسع لم يدم بل ضعفت مصر نفسها بعـد بطليموس الثالث، وبلغ من ذلك أنها دخلت فى حماية الجمهورية الرومانية. وقد بدأت اذ ذاك تتغلب على ممـالك البحر الابيض المتوسط ، وانتهى الأمر بدخولها فى حكم الدولة الرومانية كما سيأتى بعد .

الحضارة أيام البطالسة
دار الكتب ودار التحف
اقليدس ، ايرانثونيس

تعتبر دار التحف بمثابة جامعة تدرس فيها العلوم المختلفة ويقوم فيها العلماء بالبحوث العلمية الراقية . ومن هؤلاء العلماء اقليدس الذى وضـع قواعد الهندسة ومنهم أرخميديس العالم الطبيعى الذى لم يقم فى الاسكندرية ولكن كان على اتصال تام بعلمائهـا . ومنهم ايرانثونيس الذى قاس طول محيط الكرة الأرضية ورسم خريطة العالم .



(شكل ٢٦ — العالم كما رسمه ايرانثونيس)



(شكل ٢٧ — العالم كما رسمه بطليموس)

الطب

ومن الدراسات العالية بالاسكندرية دراسة الطب وقد التحق بها عدد كبير من الطلبة وقد قام علماء الطب بأبحاث مهمة .

أجرومية ديونيسيوس

ومن أكبر ثمار تلك النهضة وضع ديونيسيوس لقواعد الأجرومية الأغريقية وقد أثرت فى أجروميات اللغات الاخرى .

وأما دار الكتب فكانت تحتوى على أكثر من نصف مليون مجلد، وقد حفظت هذه المجلدات علم الاغريق وآدابهم إذ من مجلدات الاسكندرية قبل احراقها نسخ النساخون المؤلفات الاغريقية .

احراق مكتبة الاسكندرية

ويقال إن تلك المكتبة أحرقت يوم تغلب يوليوس قيصر الرومانى على الاسكندرية أو عند فتح العرب مصر . والظاهر أن محتويات المكتبة كانت قد تبددت على توالى العصور بحيث لم يبق منها يوم إحراقها إلا جزء مما كان فيها .

الأدب الاغريقى

كانت فى الاسكندرية نهضة أدبية اغريقية ومن أشهر من ظهر من الكتاب ثيوكريتوس .

وجملة القول أنه كانت أيام البطالسة حضارة باهرة إلا أنه يسهل المبالغة فى وصف تلك الحضارة . وقد كتب الفيلسوف الرومانى سنكا أن

بعض البطالسة قصدوا فى إنشاء الدور العلميـة الى التباهى ، واستشهد على ذلك بأن العلمـاء فى عهـد البطالسة الأواخر كان معظم همهم منصرفا إلى تسلية هؤلاء الملوك الضعفاء .

المصريون والحضارة الاغريقية

كان للمصريين أيام البطالسة بعض حضارتهم القديمة وقد احتفظوا بمـا ورثوه عن آبائهم ، ولم يكن للحضارة الاغريقية سبيل اليهم فكانت معـاهد الاسكندرية دورا أجنبية فى أرض مصرية وليس معنى ذلك أن المصريين كانوا شعبا مهانا فقد كان لهم حتى فى الاسكندرية مع كثرة الاغريق والاسرائيليين بها صوت مسموع .

الباب الرابع

المدنية الرومانية وحكم الرومان مصر

الفصل الأوّل

نشأة روما

سكان ايطاليا الاولون

لم يكن سكان إيطاليا الأولون من جنس واحد. فكان منهم الايطاليون وأصلهم من القبائل الآرية التي عرفنا فيما تقدم شيئا عن ارتحالها من مواطنها شمالى بحر قزوين الى السهول الأوربية الوسطى . وقد أغار بعض هـذه القبائل على شبه جزيرة البلقان وأسس الحضارة الإغريقية المشهورة وأغار البعض الآخر على شبه جزيرة إيطاليا وسكن فى أجزائها الوسطى والجنوبية وفى جزيرة صقلية .

وكان فى إيطاليا أيضا الاترور يون وهم شعب متحضر سكن الأرض فى الشمال . وفيها أيضا مستعمرات اغريقية وبخاصة فى جنوبى شبه الجزيرة وفى صقلية . وفيها أخيرا مستعمرات قرطاجينية .

اللاتين وروما

لم يكن الإيطاليون شعبا خاضعا لحكم واحد بل كانوا منقسمين الى شعوب دائمة التحارب . ومن أشهر شعوبهم اللاتين وكانت مواطنهم جنوبى نهر التيبر وفى أول الأمر خضع اللاتين لسيطرة الأترور يين . وكانت قاعدة السيطرة الأترورية حصنا، وقد عرف بعد هذا الحصن باسم روما. وسيكون لهذا الاسم فى التاريخ شأن وأى شأن .

حكم روما الملوك الاترور يون حتى عام ٥٠٠ ق.م وحوالى هذا الوقت قام أهل المدينة الرومان وطردوا ملكهم وأقاموا جمهورية ارستقراطية أى أن الحكم فيها فى أيدى الأشراف . وفى تلك الجمهورية كانت السلطة فى يد شريفين يلقبان بالقنصلين . وفيها أيضا مجلس من الشيوخ اسمه السناتو .

النزاع بين الأشراف والعامة

ولم يرض العامة عن أن يكون للأشراف وحدهم حكم المدينة فقام نزاع طويل انتهى بفوز العامة وحصولهم على نصيب وافر من الحقوق المختلفة .

روما سيدة ايطاليا

بينما كان هذا النزاع الطويل يجرى فى روما لم يغفل أصحاب الحكم فى المدينة عن الدأب على مد نفوذها فى سائر أنحاء شبه الجزيرة الإيطالية وأصبحت روما سيدة إيطاليا كلها .

وقد تمت لروما هذه السيادة بالحرب أحيانا وبعقد معاهدات التحالف أحيانا . أما الحرب فان روما خاضت غمارها ضد الأتروريين والاغريق المستعمرين فى إيطاليا وأما التحالف فانه كان بين روما والشعوب الإيطالية الأخرى .

الفصل الثانى

الكفاح بين روما وقرطاجنة أو الحروب الفينيقية

(٢٦٤ — ١٤٦ ق . م)

قوة قرطاجنة

بعد أن أصبحت روما صاحبة الكلمة العليا فى ايطاليا قام كفاح شديد بينها وبين قرطاجنة للسيادة على البحر الأبيض المتوسط .

وقد وجدت روما فى قرطاجنة عدوا أشد من الاترور يين والاغريق ، اذ كانت قرطاجنة أقدم من روما عهدا بسياسة الملك ، يرجع تأسيسها الى

عام ٨١٤ ق . م ولها مستعمرات فى إفريقية وصقلية واسبانيا وكورسيكا وسردينيا وجزر البليار ، ولها تجارة عظيمة وقوة بحرية كبيرة . ولم يكن لروما قوة بحرية ، ولم يكن لها من الغنى ما للقرطاجيين .

قوة روما

ولكن الرومان كانوا أقوى برا وكانوا وان أعوزهم المال أتم نظاما من خصومهم وأطوع منهم لقوادهم .

وكان جيشهم مكونا من رجال أحرار يزرعون الأرض ولا سيد لهم الا القانون ، سيد الجميع من كبير وصغير على حين كان القرطاجيون لا صوت لهم فى ادارة شؤون بلادهم ، اذ أن الحكم عندهم كان فى يد التجار الأغنياء يملكون معظم الأرض ويزرعها لهم أرقاؤهم .

وكان الحكم الرومانى فى ايطاليا قائما على حسن معاملة سكانها فأخلص هؤلاء له وقت محنة روما ، أما الحكم القرطاجنى فقد قام على استعباد الشعوب فلم تملك قرطاجنة قلوب رعاياها ولم تأمن لهم ، واضطرت الى تجنيد المرتزقة من كل الشعوب .

الحرب الأولى
٢٦٤ ق م

وفى الحرب الأولى بين القوتين اضطرت روما لبناء أسطول للدفاع عن سواحلها وتجارتها ، وانتهى أمر هذه الحرب بتراضى الفريقين على الصلح فدفعت قرطاجنة غرامة كبيرة وتركت للرومان معظم صقلية فكان ذلك أول فتوح الرومان خارج ايطاليا .

لم يكن ذلك الصلح إلا هدنة ، وقامت الحرب من جديد لما احتل الرومان سردينيا وكورسيكا .

الحرب الثانية
هانيبال

وقد ظهر فى هذه الحرب الثانية القائد القرطاجنى هانيبال وله فى التاريخ الحربى ما لقيصر ونابوليون من المقام العظيم . وكان هانيبال فى التاسعة والعشرين من عمره لما تولى قيادة القرطاجيين وكانت خطته أن يغزو ايطاليا بجيش عظيم جمعه فى اسبانيا . فتقدم برا واجتاز جبال الألب ونزل على سهول ايطاليا الشمالية .

وفى ايطاليا انتصر هانيبال على الرومان فى عدة مواقع . الا انه لم يقو على روما نفسها . ولما طال به الأمد ولم تمده قرطاجنة بالرجال والعدة اضطر للانسحاب من ايطاليا . وغزا جيش رومانى يقوده سيپيو قرطاجنة . وتقابل سيپيو وهانيبال فى واقعة زاما عام ٢٠٢ ق . م . وفيها انتصر الرومان وقبلت قرطاجنة الشروط الرومانية ، وهى دفع غرامة كبيرة وجزية سنوية وتسليم أسطولها عدا عشرين سفينة والنزول عن مستعمراتها فى اسبانيا .

الحرب الثالثة

خرجت قرطاجنة من الحرب الثانية مخذولة ولكن بقى لها استقلالها وتجارتها فأمكنها فى خلال خمسين سنة إعادة ما كان لها من الرخاء القديم على الرغم من الجزية السنوية ، فساء ذلك فريقا قويا من أعضاء مجلس الشيوخ الرومانى كان يرى أن لاحياة لروما الا اذا قضت على عدوتها تماما . وقد تم لروما هذا القضاء فى الحرب الفينيقية الثالثة التى نشبت عام ١٤٦ ق . م . فاستولت على قرطاجنة وعفت آثارها وحولت أرضها الى ولاية رومانية اسمها إفريقية .

أصبحت روما بهذا الانتصار بلا منافس لها فى البحر الابيض المتوسط وامتلكت اسبانيا وصقلية وجزءا من افريقية الشمالية .

نتائج الحروب الفينيقية

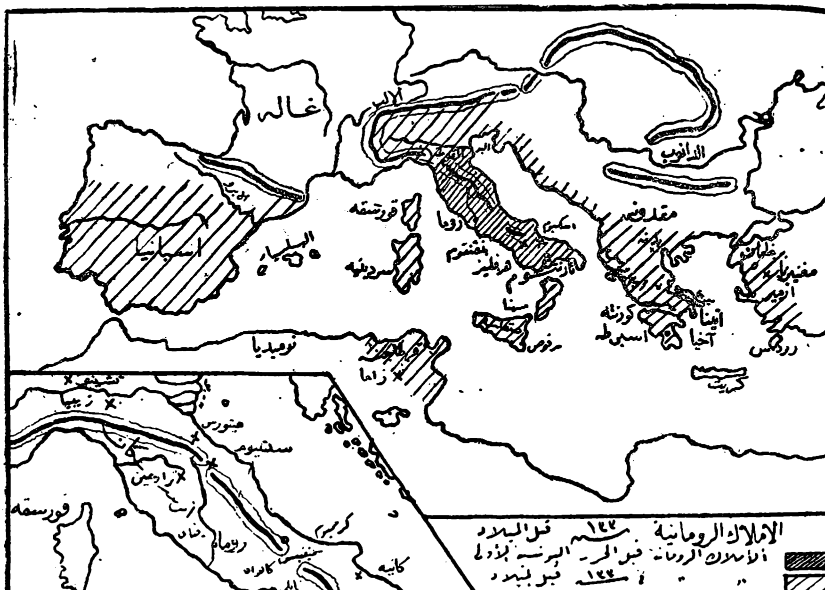
ولكن الحروب الطويلة أنهكت قواها : وقتل فيها خيرة شباب ايطاليا فقلت الأيدى العاملة واضمحلت الزراعة لانصراف الفلاحين الى الخدمة العسكرية ، فنتج من ذلك حلول الارقاء محل الأحرار فى فلاحة الأرض وتجمع المزارع الصغيرة فى ضياع كبيرة يملكها الأغنياء .

الفصل الثالث

نهاية الجمهورية الرومانية

فتوح الرومان في مقدونيا وآسيا

أدت السيادة الرومانية فى البحر الأبيض المتوسط الى تدخل الحكومة الرومانية فى شؤون الدول المستقلة الواقعة على سواحله . وانتهى هذا التدخل إما ببسط حكمها تماما على بعض هذه الدول واما بالسيطرة العامة على البعض الآخر . فبسط الرومان حكمهم على مقدونيا وآسيا الصغرى . ودخلت مصر وكان يحكمها البطالسة تحت حمايتهم . وكان هذا فى عام ١٦٨ ق . م .



اتسع ملك روما واشتمل بلاد البحر الأبيض المتوسط ، وبعد أن كان السناتو مجلس شيوخ مدينة صغيرة من مدن ايطاليا أصبح محكمة تفصل فى أمور الملوك والشعوب ، وقصد روما الملوك والأمراء التابعون ليقيموا فيها يتزلفون الى السناتو .

وما لبث هذا الملك العظيم حتى أثر فى الرومان أنفسهم وفى حكومتهم .

الحكم الرومانى فى الولايات

كان الحكم الرومانى فى الولايات سيئا أيام الجمهورية وذلك لأن أهل الولايات لم يكن لهم شىء من الحقوق التى كانت للرومان . وقد وضع السناتو قوانين لحكم الولايات ولكنها لم تراع : فالحاكم الرومانى فى الولاية كانت سلطته تامة ، فى يده الحامية الرومانية والأموال التى يجبيها ، وهو بعيد عن أعين السناتو ولا سبيل لوصول شكاوى الأقاليم النائية الى مسامعه .

ومما زاد الطين بلة أن العادة اقتضت أن لا يمكث الحاكم أكثر من عام واحد فكان الغالب على الحكام انتهاز الفرصة لجمع كل ما يمكنهم جمعه من المال ولو وقع الحيف على الرعية . وذلك لأن الحاكم كان لا يعين فى الحكم الا اذا بذل المال بين ذوى النفوذ فى روما فكان يهمه أن يسترد ما بذل من جيوب المحكومين .

الالتزام

وكان الحكام يتبعون فى جمع الأموال طريقة فاسدة هى المعروفة بطريقة الالتزام : وذلك أن يتعهد بعض الناس بدفع ما على الأقاليم من الضرائب جملة واحدة ويقومون هم بجمعها من الناس لأنفسهم . وعيب هذه الطريقة أن الملتزمين كانوا يربحون من ذلك ربحا كبيرا فقد كانوا يقدمون للحكومة أقل مما لها ويجمعون من الناس أكثر مما عليهم من الحقوق .

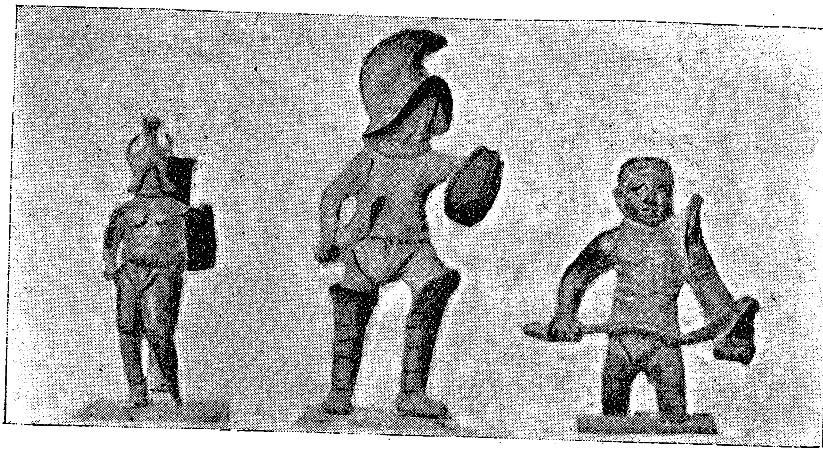
المرابون

ساءت الحالة فى الولايات وعمد أهلها الى الاقتراض من طائفة المرابين وكانوا يقرضون أموالهم بربا فاحش ، وليس هناك من يحمى الفقراء منهم ومن تحكمهم .

الأغنياء فى روما

وقد اعتادت تلك الطوائف من الحكام والملتزمين والمرابين الرجوع الى روما بعد جمع ثروة عظيمة فى الولايات والاقامة فيها والانفاق على سعة . فبنوا قصورا فخمة فى العاصمة وزينوها بما جمعوه فى بلاد الاغريق والشرق من النفائس ، وحاطوا أنفسهم بالجم الغفير من الارقاء والخدم . وكانت معيشتهم أبعد ما تكون عن معيشة الاشراف الذين بنوا مجد الجمهورية .

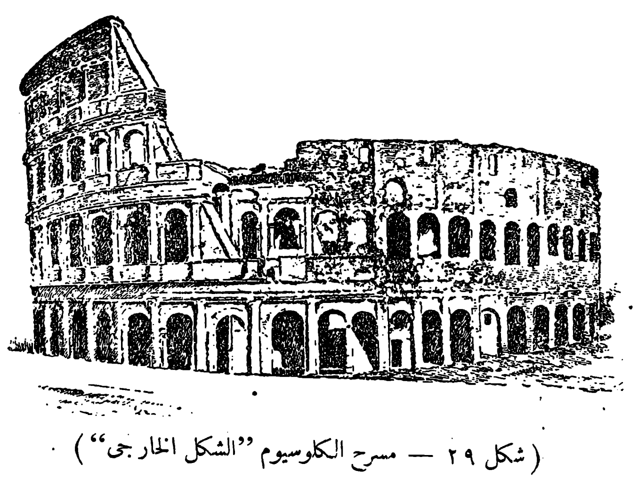
وصار لهؤلاء الأغنياء بفضل مالهم نفوذ كبير فى الحكومة ، وصار كل أعضاء السناتو منهم وشغلوا وظائف الدولة العظيمة كلها ، وانتهى الأمر بأن المجالس العامة فى روما التى سبق ذكرها لم يصبح لها من الأمر شىء .



(شكل ٢٨ — المصارعون : تماثيل مصغرة)

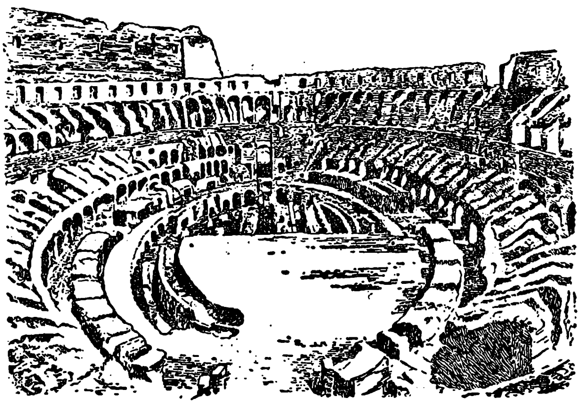
فساد العامة

ولم يقف الأمر عند ذلك فان الأغنياء عملوا على اكتساب نفوذهم بافساد العامة بطرق مختلفة . منها بيعهم الغلال لهم بثمن بخس ، ومنها الاكثار من المواسم والأعياد وألعاب المصارعين وسباق العجلات فضمنوا بتلك



(شكل ٢٩ — مسرح الكلوسيوم "الشكل الخارجى") .

الطرق أصوات الشعب فى الانتخابات ، ولم يجرؤ الفقير كذلك على ترشيح نفسه لأية وظيفة من الوظائف . وحتى الجند فسدت أخلاقهم فوضعوا



(شكل ٣٠ — الكلوسيوم "داخل البناء")

أنفسهم تحت تصرف قوادهم الذين كانوا يمنونهم بالاسلاب والغنائم وأصبحوا فى أيديهم آلات لتحقيق مطامعهم الذاتية . وجملة القول أن الشعب الرومانى الذى كان كبير الفضائل السياسية والحربية استحال الى جمهور من الرعاع يعيش على فتات موائد الأغنياء .

المزارعون واستخدام الرقيق

وأخذ الأغنياء أيضا فى ابتياع أرض صغار المزارعين وتحويلها الى ضياع كبيرة . وعملوا على استخدام الرقيق فى الزراعة بدلا من الاحرار . ومعظم الرقيق أصلهم من أسرى الحروب فى قرطاجنة واسبانيا وغالة ومقدونيا وبلاد الأغريق وآسيا . وكانت هناك أسواق يباعون فيها ويشرون ، وأثرى أناس كثيرون من تلك التجارة .

ثورات الأرقاء

ولم يحسن السادة معاملة أرقائهم فقام هؤلاء مرارا وثاروا طلبا للحرية . واحتشد منهم فى إحدى الثورات جمع يبلغ نحو ٦٠٠٠٠ وجعلوا من أحدهم ملكا ، ولم تخمد الحكومة حركتهم الا بعد حرب دامت سنين عدة .

نتيجة كل ذلك اضمحلال طبقة الزارعين الصغار ؛ اذ أن الزارع الصغير عجز عن مزاحمة المالك الكبير فلم يمكنه أن يبيع حاصلاته بأثمان حاصلات

الضياع العظيمة أو بأثمان الغلال المستوردة من مصر أو صقلية أو إفريقية ، فاضطر الى بيع مزرعته والارتحال الى روما — كما فعل آلاف على شاكلته — والعيش فيها عيشة المتشردين .

تأثير الفتوح في الحضارة الرومانية

كان من شأن الفتوح اتصال روما بالحضارة الاغريقية فأخذ أغنياء الرومان يدرسون الآداب والفلسفة الاغريقية ، واتخذوا لأبنائهم مؤدبين من الأغريق . ولم يكن كل ذلك خيرا فقد صحب انتشار الحضارة الأغريقية اقلاع الرومان عن بساطتهم القديمة وفقدهم ايمانهم بآلهتهم وتفكك أواصر الأسرات .

الجهود في سبيل الاصلاح

وقد قاوم تلك المساوئ رجال أشهرهم " كاتو " الذى كان طول حياته مثال المحافظة على العادات والنظم الرومانية القديمة . والسر فى اهتمام كاتو وأمثاله بالأشياء القديمة رؤيتهم أن انتشار الآراء الجديدة لا بد أن يؤدى يوما ما الى القضاء على النظام الجمهورى نفسه ؛ فان هذا النظام قام فى الاصل على أساس اجتماعى خاص ؛ فضعف هذا الاساس يؤدى الى سقوط الجمهورية فى آخر الأمر .

تدخل قواد الجيش فى الحكم قيصر

وزاد الحالة سوءا تدخل قواد الجيش فى مسائل الحكم . وقد ظهر منهم فى القرن الأول قبل الميلاد پومپى ثم يوليوس قيصر . وكان قيصر كبير الهمة عالى النفس يريد السلطة ليتمكن من اصلاح أحوال الجمهور .

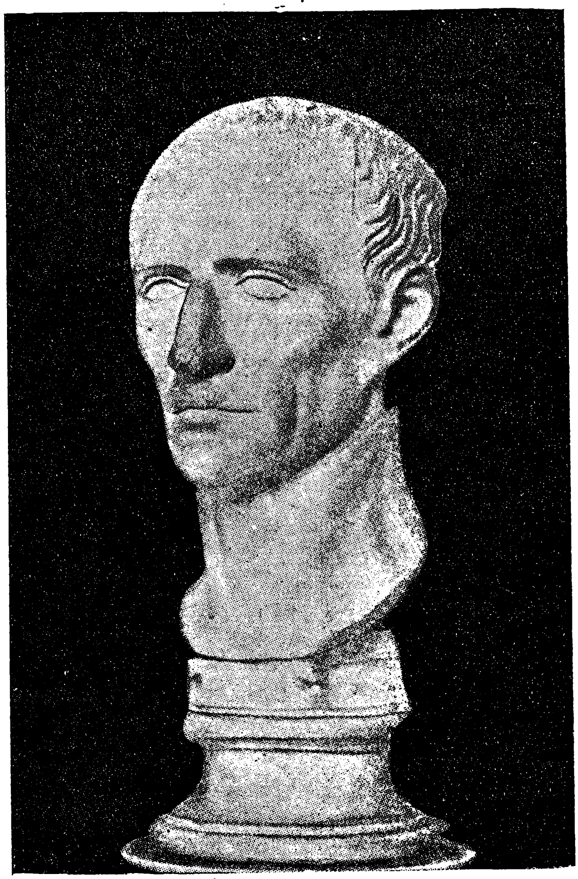
فتحه بلاد غالة

عين قائدا لغالة (فرنسا الحالية) وتمكن من اخضاعها بعد حروب دامت ثمانية أعوام ؛ وخلد بذلك اسمه فى التاريخ الحربى . وقد ترك وصفا بديعا لتلك الحرب فقد كان كاتبا عظيما كما كان جنديا كبيرا . وفى أثناء حروبه فى غالة اجتاز البحر الى بريطانيا وتوغل فيها حتى نهر التيمس .

الحرب بين قيصر و پومپى

عاد قيصر الى روما بعد انتصاراته الباهرة وأصبح صاحب الأمر فيها . ولما كان پومپى منافسا له فى السلطان على الجمهورية قام النزاع بين الرجلين

وتعقب قيصر عدوه فى شبه جزيرة البلقان وهزمه فيها . ففر پومپي الى مصر وقتل فيها غدرا .



(شكل ٣١)

قيصر فى مصر وفى آسيا الصغرى

ذهب قيصر وراء عدوه الى مصر وكانت تحكمها اذ ذاك كليو باترة فخضعت له وأقام معها وقتا ثم غادرها واخضع أنصار پومپي فى آسيا الصغرى وقد كتب اذ ذاك رسالته المشهورة للسناتو : أتيت فرأيت فغلبت .

وما حلت سنة ٤٥ ق.م الا كان قيصر قد أخضع الدولة الرومانية كلها وعاد لروما وصار فيها الحاكم المطلق .

الاصلاح

كان قيصر رجل سياسة كما كان رجل سيف وقلم ؛ فعفا عن أعدائه ؛ وحتى السناتو لم يلغه مع علمه بعدم أهليته واكتفى بتجريده من كل سلطة ؛ وأبقى أيضا من مظاهر الحكم الجمهوى انتخاب الموظفين .

ثم اهتم بتنفيذ مشروعات مختلفة لاصلاح الأحوال الاجتماعية والاقتصادية ، وأصلح ما اختل من نظام الحكم فى المدن ، وشرع فى تنظيف مدينة روما ، وأدخل اصلاحا فى حساب السنين ، وأنشأ الطرق الكبرى .

وقد فكر أيضا فى التغلب على القبائل المتبربرة الساكنة بالقرب من نهر الرين، ومد حدود الملك الى بحر الشمال .

قتل قيصر فى عام ٤٤ ق.م

ولكنه قتل وهو منهمك فى اصلاحه . قتله نفر تحت رياسة بروتوس وكاسيوس لمنعه من قلب النظام الجمهورى .

أنتونى واكتافيوس

تجددت الفوضى بعد قتله ؛ فحاول السناتو اعادة الحالة الى ما كانت عليه ؛ ولكن قاومه حزب العامة وعلى رأسه رجلان قادران : انتونى صديق قيصر الذى نهض للمطالبة بدم صديقه، واستفز غضب الناس على قاتليه بمرثية مشهورة ، وأكتافيوس قريب قيصر وكان اذ ذاك فى الثامنة عشرة من عمره .

وفى عام ٤٣ق .م. انتخب قنصلا واقتسم السلطة هو وأنتونى ولبيدوس وأول أعمالهم كان الثأر لقيصر من أعدائه ؛ فقتلوا منهم عددا كبيرا منهم شيشرون الخطيب المشهور وتعقبوا بروتوس ومن معه الى شبه جزيرة البلقان وهزموهم فى واقعة فلپى وقتلوهم .

أنتونى فى مصر

وبعد ذلك ذهب أنتونى الى مصر لانحيازها الى أعداء قيصر وعاد اكتافيوس لايطاليا وتولى لبيدوس حكم إفريقية .

وفى مصر أحب أنتونى كليوبطرة حبا عظيما ، وعاش معها عيشة ترف وخمول ، وفكر فى اقامة دولة شرقية لها ولنفسه .

واقعة أكتيوم عام ٣١ ق٠م

فانتهز اكتافيوس تلك الفرصه وأثار عليه غضب الرومان، وأعلن السناتو الحرب على كليو بطرة وهزم اكتافيوس الأسطول المصرى فى واقعة أكتيوم واقتفى أثر أنتونى وكليو بطره الى مصر . وقد انتحر الاثنان قبل وقوعهما فى قبضته ، ودخلت مصر فى حكم الرومان .

انتهاء عصر الثورات

أصبح بعد ذلك اكتافيوس لا منافس له . اذ لم يكن لبيدوس ذا خطر كبير ، وقد قبل التخلى عن السياسة وصار كاهنا كبيرا . وانتهت بذلك الثورات والحروب الأهلية التى بدأت قبل هذا بنحو مائة عام .

الفصل الرابع

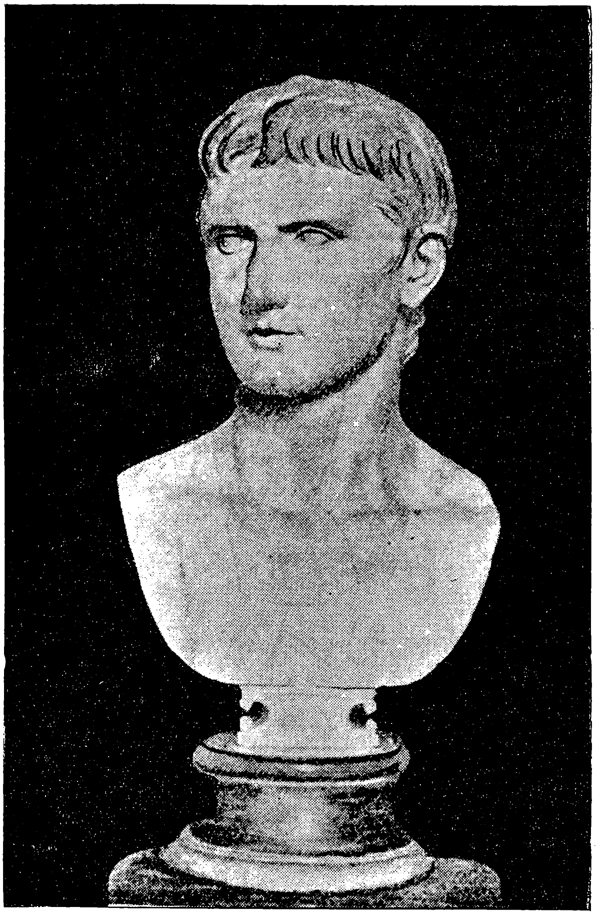
تأسيس الأمبراطورية وعصر اجسطوس

سياسة اكتافيوس

عاش اكتافيوس بعد انتصاره فى اكتيوم أربعة وأربعين عاما صرف فى اثنائها جهدا كبيرا فى وضع النظام السياسى على أساس ثابت فكان بذلك المؤسس للأمبراطورية . بيد انه عنى عناية كبيرة بألا يظهر بمظهر الحاكم المستبد ، فأبقى وظائف الدولة كما هى ولكن جمعها كلها فى شخصه ، وتجنب التلقب بلقب الحاكم المطلق (دكتاتور) واكتفى بلقب اجسطوس أو الفخم وأما لقب أمبراطور فلم يكن اذ ذاك يدل الا على قيادة الجيش، وترك مظاهر الحكم الجمهورى على حالاتها . فاستمر السناتو يضع القوانين، وبقى الموظفون يحكمون باسم الشعب . كل ذلك فى الظاهر فقط .

وعاش اجسطوس عيشة متجردة عن أبهة الملك : يذهب للمجالس العامة للتصويت كعامة الشعب ويجلس فى السناتو ويخطب فيه وأبواب منزله مفتوحة للواردين .

ولكن كان فى الحقيقـة الحاكم المطلق ، ويعاونه فى الحكم مجلس من اخصائه ، وله حرس يحفظ الأمن ، يعتمد عليهم فى ذلك وفى العناية بتدبير



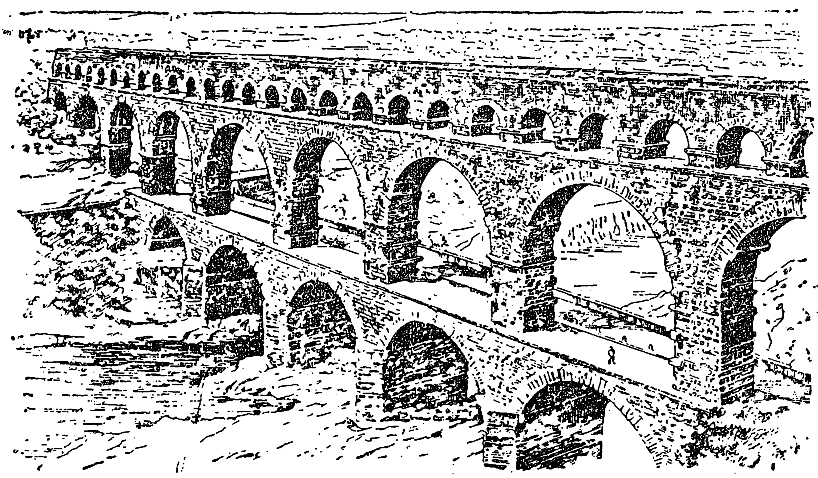
(شكل ٣٢ — أجسطوس)

الغلال اللازمة لأهل روما ، ويتلقى أوامره فى ذلك الشأن موظفون من العتقاء يثق فى اخلاصهم له .

خيم النظام على روما فى أيامه وساد السلام فى ربوعها بعد أن طال عبث العابثين به وأخذت الرفاهية تحل محل البؤس .

بناء روما

واهتم اجسطوس بتجـديد روما وتحسينها وقد باهى بذلك فقال إنه وجد مبانيها مبنية باللبن وتركها مبنية بالرخام . ونظم توزيع المـاء على دورها وجلبه من مسافات بعيدة بمجارى عالية وخصص له طائفة من المهندسين . وحاول اصلاح الاخلاق فأحيا العبادات وقيد الطلاق كى يمنع تفكك الاسرات .



(شكل ٣٣ — مثال من المجارى الرومانية لجلب المـاء)

اصلاح الحكم فى الولايات

أخرج الامبراطور معظم الاقاليم من حكم السناتو ووضعها فى يده واهتم بازالة النظام السيئ الذى تقدم وصفه . فكان هو الذى يعين الولاة ويجرى عليهم رواتب ثابتة ويراقبهم مراقبة تامة . وجعل لسكان الولايات حق انتخاب مجالس لها ان ترفع الشكوى للامبراطور نفسه .

ثم قام باحصاء دقيق للولايات وحدد بعده مقدار الضرائب فعلم الناس حينئذ ما عليهم بالضبط ، وخلصهم بذلك من ظلم الجباة وتحكم المرابين. وقد أردف ذلك باصلاح جليل هو انفاق معظم ما يجيء من الاقاليم فى الاقليم نفسه فى انشاء طرقه وقناطره ومجاريه وغير ذلك من المنافع العامة .

صار بذلك الحكم فى الاقاليم عادلا ثابتا .

الدولة الرومانية

كانت الدولة تحدها حدود طبيعية : نهر الرين فى الغرب والدانوب فى الشمال والفرات فى الشرق . وبالقرب من تلك الحدود كان المتبربرون .

الجيش — وقد نظم اجسطوس جيشا عظيما لحماية الحدود ، عقد له ثلاثة وعشرين لواء ، وجنــد أيضا فرقا احتياطية من أهل الولايات ، وبلغ عدده جميعــا ٤٠٠٠٠٠ جندى ، ووزعه فى معسكرات فى النقط المهمة . وبذلك ساد السلام

وقد فكر الامبراطور فى اخضاع المتبربرين شمالى الدانوب ومد الملك الى الالب ولكن الجيش الذى أرسله لذلك الغرض هزمه المتبربرون وقفل راجعا .

عصر اجسطوس — وكان عصره من أزهى العصور حضارة .

شيشرون — وقد تقدم أن الرومان اتصلوا بالحضارة الاغريقية فأصبح متعلموهم شديدى الشغف بآداب الأغريق ، حتى كانوا يفضلون استعمال الاغريقية فيما بينهم على اللاتينية لغتهم . ولمـا قام شيشرون وكتب باللاتينية وأجاد أجادة عظيمة أثبت بذلك أنهـا تصلح للتعبير عن كل المعانى . ولا يزال ما كتبه شيشرون فى الخطابة والأدب والتراسل نموذجا للادباء من جميع الأمم . ففضــله على اللاتينية عظيم .

مايسيناس — وكان اجسطوس يميل الى مخالطة الأدباء وتبعه فى ذلك بعض عظماء الرومان ومنهم مايسيناس ويضرب به المثــل فى تشجيع الأدب ورجاله . وأنشأ اجسطوس دارين عظيمين للكتب فى روما . فلا عجب ان ظهر فى عصره رجال نوابغ برزوا فى مختلف الفنون . فكتب ليفى تاريخا لروما استغرق وضعه أربعين عاما . وظهر من الشعراء هوراس وفيرجيل .

ليفى وهوارس وفيرجيل

هذا ما كان من أمر الأدب ، ولكن الرومان لم يصلوا فى الرسم والبناء وصنع التماثيل الى ما وصــل اليه الاغريق ، وكذلك فى العــلوم . يدلك على ذلك أن المؤلف العلمى الوحيد الذى وضع فى عصر اجسطوس هو جغرافية اسطرابون . ولم يكن اسطرابون رومانيا بل كان اغريقيــا يسكن فى روما . كذلك فى الفلسفة لم يبلغ الرومان ما بلغه الاغريق .

اسطرابون

الحضارة الرومانية والحضارة الاغريقية — وجملة القول ان الرومان امتازوا بحكمتهم السياسية فكانوا أقدر من الاغريق فى التشريع واكفأ منهم فى الحكم والحرب ، أما الاغريق فكانوا شعبا واسع الخيال سريع الفهم نبغ فى الفنون والآداب مبلغا لم ير التاريخ له مثيلا .

موت اجسطوس عام ١٤ م

مات اجسطوس فى عام ١٤ م . وهو فى السادسة والسبعين من عمره ولم يترك ولدا فآل الحكم الى ابن زوجته تيبريوس .



(شكل ٣٤ — تمثال رومانى يوضح أثر الفن الأغريقى فى الفن الرومانى)

الفصل الخامس

القياصرة الفلافيين والأنتونين

فسبازيان ٦٩ — ٧٩ م

قام بين قواد الجيش بعد موت نيرون ، آخر من جلس على العرش من أسرة أكتافيوس ، نزاع على العرش ؛ ونجح أحدهم فسبازيان وتولى الأمبراطورية فى عام ٦٩ م .

حكم فسبازيان

يعرف فسبازيان ومن خلفه من اسرته بالقياصرة الفلافيين ؛ وكانوا حكاما عظاما أعادوا للدولة ما كانت عليه أيام أجسطوس من القوة والرفاهية .

أصلح فسبازيان ما اختل من الأمور المالية وأعاد النظام فى الجيش وأخمد الثورات المختلفة ؛ وأخرج من السناتو عديمى الأهلية من رجاله وألغى قانونا يبيح للأمبراطور الفتك بأعدائه جملة واحدة دون محاكمة .

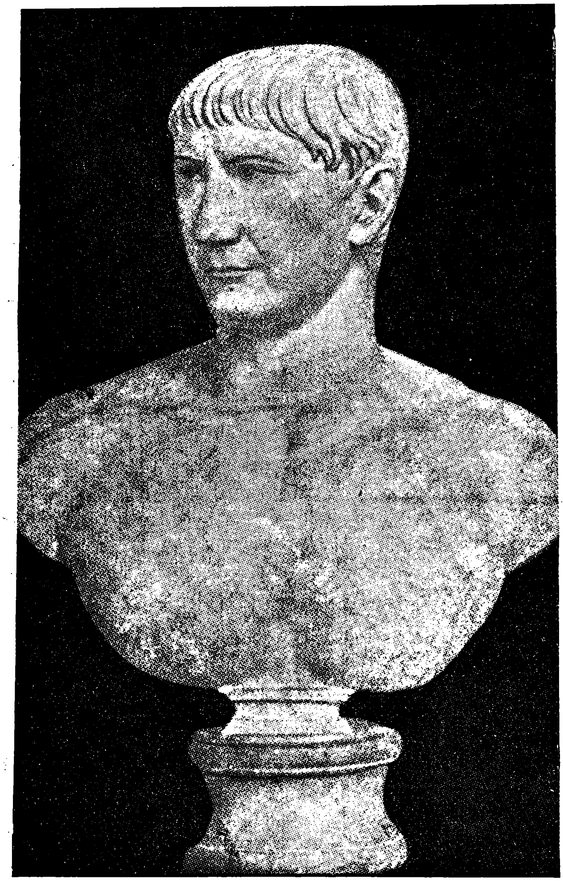
وتولى بعده ابنه تيتوس . ولم يحكم الا ما يقرب من عامين . وفى أيام أبيه تولى اخماد ثورة قام بها الاسرائيليون واستولى على ارشليم ودمر مبانيها . وقد حدث فى أيامه ثوران بركان فيزوف وتخريبه المدن على سفحه ومنها پومپى .

انتهت مدة الفلافيين فى عام ٩٦ م وقامت بعدهم أسرة الأنتونين .

تراجان ٩٨ — ١١٧ م

ومن أشهر رجال هذه الأسرة الأمبراطور تراجان ، وكان قائدا ماهرا دفع المتبربرين عن حدود الدولة واستعمر ولاية داشيا وهى الآن جزء من رومانيا الحالية . وأضاف الى الدولة أيضا ارمينيا واشور والأرض بين الدجلة والفرات وقد نصب فى روما العمود المشهور باسم عمود تراجان تخليدا لهذه الحروب .

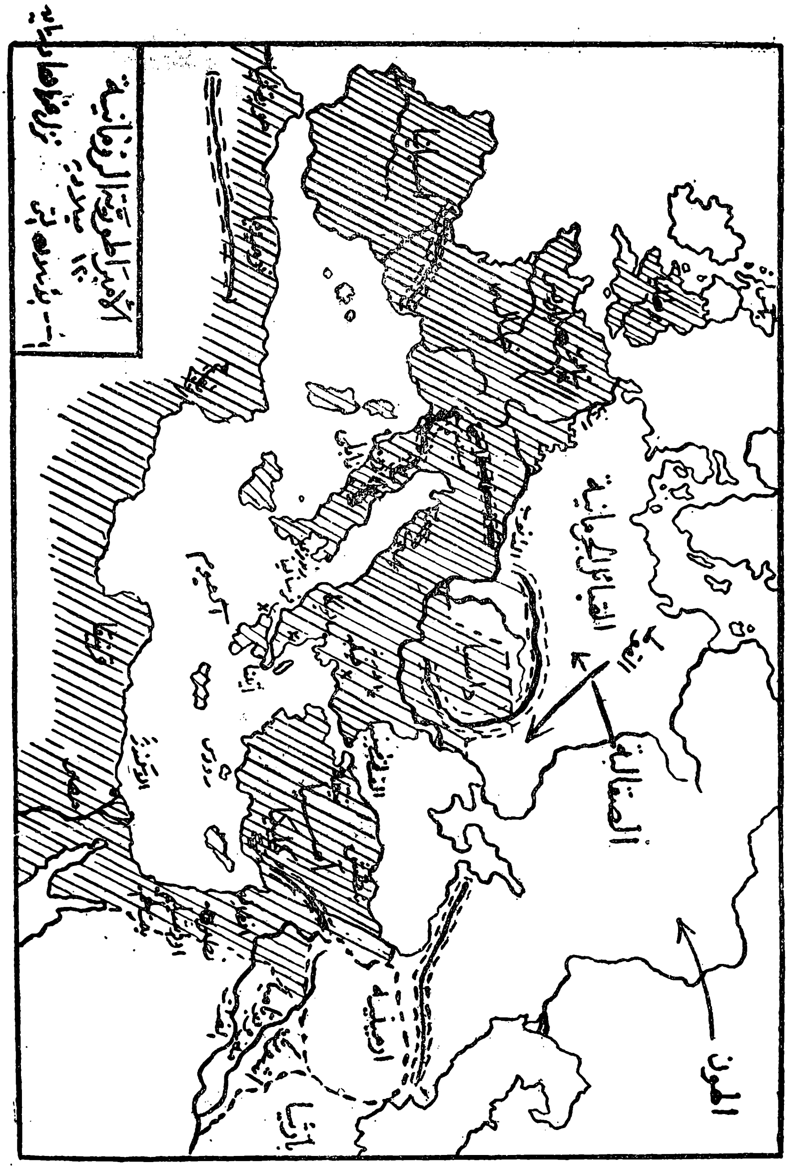
وكان تراجان يشبه اجسطوس فى شدة احترامه للظاهر الدستورية وفى بساطة عيشته .



(شكل ٣٥ — تراجان)

هادريان
١١٧ — ١٣٨ م

وخلفه أمبراطور عظيم هو هادريان ، وكان أيضا قائدا عظيما وحاكما ماهرا ولما رأى أن فتوح سلفه كانت مصدر ضعف لاقوة تخلى عنها وجعل الفرات حد الدولة الشرقى . وبنى أسوارا على الحدود الشمالية لمنع المتبربرين من التوغل فى أرض الدولة . وأشهر تلك الأسوار سور هادريان فى شمالى انجلتره وكانت تمتد شرقا وغربا بين البحرين ولا تزال أجزاء منها باقية .


الأمبراطورية الرومانية
١٢٠ ميلادية
الهون
الصقالبة
القبائل الجرمانية
ارمينيه
بارثيا
روديس
أكسيوم

وكان يحب التجول فى الولايات وأينما حل ترك ما يدل على عظم همته . واهتم بنوع خاص باقامة المبانى المختلفة وترميم العمائر القديمة . وكان يحب أثينا حبا كبيرا ويميل للسكنى بها والعناية بها فكانت تعرف باسم مدينة هادريان .



(شكل : ٣ — هادريان)

ولهـذا الامبراطور أثر آخر فى التاريخ الرومانى ؛ وذلك أنه حتى أيامه كانت الادارة فى يد العتقاء ، فانتزعها منهـم وأوجد لها موظفين ثابتين فى وظائفهم من الأحرار كما هو الحال فى الحكومات الحاضرة .

وبدأ أيضا جمع القوانين المختلفة فى مجموعة واحدة هى أول مجموعة من نوعها .

بدء غارات المتبربرين

وبالجملة بلغت الدولة الرومانيـة أيامه مبلغ قوتها . وفى مدة خلفه بدأت إغارات المتبربرين التى استمرت سنين عدّة ولم تنته الا بانحلال الدولة وقيـام ممـالك المتبربرين محلها .

ماركس أرليوس ١٦١ — ١٨٠ م

اشتدت تلك الاغارات فى عهد أحد خلفاء هادريان الامبراطور الفيلسوف ماركس أرليوس وقد خلف هذا الامبراطور مجلدا صغيرا يعرف باسم تأملات ماركس أرليوس ؛ وتدل تأملاته على أنه كان يسعى طول حياته لبلوغ غاية الكمال الخلق . ولكن إغارات المتبربرين لم تدع له التمتع بهدوء الفلاسفة فعاش طول حكمه فى حرب معهم ؛ ولمـا يئس من الوصول لغرضه بالقتال استن سنة خطرة هى السماح لبعضهم بالسكنى فى أرض الدولة .



(شكل ٣٧ — ماركس أرليوس)

الفصل السادس

عصر الفوضى الحربيـة

بدأ بموت ماركس أرليوس عصر سادت فيـه الفوضى ، وذلك لتدخل الالوية المختلفة فى تعيين القياصرة . وقامت بينهـا حروب طويلة أضعفت الدولة اضعافا كبيرا. ولا أدل على سوء الحالة من أنه حكم فى مائة سنة ثمانية وعشرون امبراطورا .

نتجت من ذلك نتائج سيئة . فثـارت عدّة ولايات وخرجت عن حكم الدولة ، وعبث المتبربرون بالحدود وعاثوا فى أرضها فسادا .

دقلديانوس ٢٨٤ — ٣٠٥م

وقد حاول الامبراطور دقلديانوس اصلاح ذلك ، وكان يرى أن لا طاقة لرجل واحد بحكم الدولة كلهـا فأقام معه امبراطورا آخر مقر حكمه ميلان فى ايطاليا وأقام أيضا قيصرين آخرين أقل مرتبة من دقلديانوس وزميله ويتوليان الامبراطورية بعد موتهما . وقد قدّر أن ذلك الترتيب يمنع الجند من التدخل فى تعيين القياصرة .

اختص دقلديانوس بأمر الشرق وابتدع فى عيشته بدعة سيئة تلك هى الانزواء عن أعين الشعب وحياطة شخصه بمظاهر الملكية الشرقية . وظن أنه بذلك تعظم هيبته فلا يجسر فرد على مسه بسـوء ، وزاد أيضا فى عدد الموظفين لتوسيعه نطاق الحكومة .

فشل سياسة دقلديانوس

فشلت سياسة دقلديانوس : فتقسيم الدولة لم يؤد الى الغرض منه فلم يمنع الحروب الأهليـة ، والبذخ والاسراف والاكثار من عدد الموظفين أفقر الامبراطورية .

قسطنطين ٣٠٦ — ٣٣٧م

ولم يدم النظام الذى وضعه بعد موته ، إذ انتصر أحد الرومان قسطنطين على منافسيه وتولى الامبراطورية ووحدها ثانية .

أسس قسطنطين مدينة القسطنطينية واتخذها مقرا لدولته ، ثم رفع عن المسيحيين الاضطهاد الذى أنزله أسلافه بهم واعتنق دينهم واعترف به دينا من أديان الدولة فى عام ٣١٣م . واجتمع فى أيامه بناء على مشورته أول مجمع عام لكنائس الشرق والغرب فى مدينة نيقية بآسيا الصغرى .

الفصل السابع

انتشار المسيحية

تمهيد

أشير فى آخر الفصل السابق الى انتصار المسيحية على الوثنية فى أيام قسطنطين وثبتت بذلك دعائمها وأصبحت عنصرا مهما من عناصر الحضارة الأروبية الحديثة ؛ وأثر المسيحية فى التاريخ أعظم شأنا من القانون الرومانى والآداب اللاتينية والاغريقية ، إذ أنها دين الملايين من الخلق أما الفلسفة والأدب فلا تؤثر إلا فى قليل من الناس ؛ فلا يسع طالب التاريخ إلا العناية بدراستها دراسة تاريخية بعيدة عن الجدل الدينى .

الدعوة للمسيحية

دعا حواريو المسيح الناس الى اعتناق دينه ؛ فاعتنقه أولا الكثير من بنى اسرائيل؛ ثم أخذ بولس أحد الحواريين يحاول نشره بين غير الاسرائيليين فجال فى آسيا الصغرى و بلاد الاغريق وألقى عصا التسيار فى روما حيث أعدم فى عهد نيرون . وقد خلف بولس الرسائل التى كتبها فى أثناء رحلاته وانتشرت باللغة الاغريقية وشغف الناس بها. وانتشرت أيضا كتب أربعة تقص سيرة المسيح وتتضمن تعليمه؛ وهذه الكتب الأربعة ورسائل بولس هى أهم محتويات العهد الجديد .

العهد الجديد

انتشار المسيحية

انتشر الدين المسيحى انتشارا سريعا فى سائر أرجاء الدولة الرومانية ولذلك الانتشار السريع أسباب :

ضعف الوثنية

منها ضعف الدين الرومانى الوثنى ؛ وعيبه وعيب العبادات الوثنية جميعا أنها لا تصلح للانسان إلا فى طفولة الحضارة ينفر منها إذا نضج فكره وتكون خلقه ؛ فليست العبادات الوثنية إلا طقوسا ترمى الى اتقاء شر الآلهة أو استجداء خيرها .

أثر الفلسفة الرواقيون

وقد حاولت الفلسفة تكميل ما فى الوثنية من نقص فعلم الفلاسفة الاغريق الفرق بين الخير والشر و بينوا واجبات الانسان المختلفة ، واهتمت طائفة الرواقيين بالأخلاق فحثت على الصبر والتجلد والتواضع ونهت عن الكبر والاثرة واستنكرت الرق والقسوة .

انتشرت هذه الآراء بين الرومان وهذه تأملات ماركس أرليوس أثر من آثارها .

ولكن الفلسفة لا تنفذ الى قلوب الكثيرين ولا تبلغ من العامة ما يبلغه منها دين يعلم الوحدانية وحب الله والناس جميعا و يقرر تساوى الخلق جميعا .

انتشرت المسيحية بذلك ، ولم ترض حكومة الدولة الرومانية عن ذلك فعمدت الى اضطهاد معتنقيها .

أسباب اضطهاد المسيحيين

ولم يكن ذلك الاضطهاد صادرا عن غلظة قلب أو كره لكل ما لم يكن مألوفا فقط ، فقد اضطهد المسيحية بعض من أكرم القياصرة خلقا وأوسعهم فكرا ، انما كان الاضطهاد لشعور الحكومة بأن الدين الجديد ينقض الأسس التى قام عليها المجتمع الرومانى .

أنكرت المسيحية الرق والقسوة فى معاملة الأرقاء على حين أن الوثنية تعدهما أمرا طبيعيا ، وحثت المسيحية على التواضع وانكار الذات والاخوة أما الطبقات الرومانية الحاكمة فكانت قائمة على تمييز الناس بعضهم من بعض وتعد السعى الى القوة والجاه والثروة أمرا مشروعا ، فلا عجب أن أوجست خيفة من انتشار الدين الجديد بين الفقراء والارقاء .

عبادة الأمبراطور

ورفض المسيحيون التعبد لتماثيل القياصرة المنصوبة فى المعابد وكانت تلك العبادة فرضا على الجميع ، فعدت الحكومة ذلك عصيانا وخيانة ، وحداها ذلك على اضطهاد المسيحيين وعدهم فئة خارجة على الجماعة .

أثر الاضطهاد قسطنطين

وقد بلغ الاضطهاد أشده فى عهد نيرون ودقلديانوس ولكنه لم يأت بالغرض المقصود منه بل زاد المسيحيين تمسكا بدينهم الى أن أصبحوا فى أيام قسطنطين أكثر عددا من الوثنيين ، فرأى هذا الأمبراطور أن يعترف بدين الكثرة من رعيته .

الالحاد ، أريوس

ولما ارتفع عن المسيحيين الاضطهاد بدءوا ينقسمون فرقا وقام فيهم قسيس اسمه أريوس يدعو الى مذهب عرف بالآرية نسبة اليه ، فاجتمع من رجال الدين مجمع كبير فى مدينة نيقية ونظر فى الخلاف السائد وقرر أن أريوس ملحد وطلب الى قسطنطين عقاب الملحدين .

جوليان المرتد

وبعد قسطنطين حاول أحد القياصرة نقض ما عمله . وذلك هو الأمبراطور جوليان نشأ فى أثينا ودرس الفلسفة الاغريقية وعمل على اعادة الوثنية . ولكنه مات وعكس خلفه سياسته .

مرسوم ثيودوسيوس ٣٨٠ م واضطهاد الوثنية

ولما استتب الأمر للمسيحية تماما أخذت الحكومة تضطهد الوثنية فأصدر الامبراطور ثيودوسيوس مرسوما يحتم اعتناق المسيحية وحرم عبادة الأوثان وأغلق معابدها .

تنظيم الكنائس الكنيسة جمهورية

قامت الكنائس المختلفة فى المدن المهمة واشتهرت منها كنائس روما والاسكندرية وأرشليم وأنطاكية والقسطنطينية ، وجعلت لقسسها مراتب متتالية وصارت فى مجموعها شبيهة بحكومة منظمة . ولكنها كانت تختلف اختلافا جوهريا عن نظام الدولة الرومانى : فبينما كانت سلطة الامبراطور استبدادية كان المسيحيون يشتركون فى انتخاب الأساقفة وكان الأساقفة يدبرون الأمور المهمة بالتشاور معا فى مجامع عامة .

بقاء الكنيسة بعد زوال الدولة الرومانية

تغلب على الدولة الرومانية المتبربرون وزال ملكها ولكن الكنيسة بقيت وكانت عظيمة الأثر فى تاريخ العصور الوسطى والعصور الحديثة .

الفصل الثامن

انحلال الدولة الرومانية وتأسيس ممالك المتبربرين

أسباب اغارات المتبربرين

فى القرن الثانى بعد الميلاد أخذت القبائل المتبربرة الساكنة فى وسط أوربا وشماليها تحاول الاستيلاء على أراضى الدولة الرومانية .

وقد شجعهم على ذلك ما رأوه من ضعف الدولة الحربى اذ أن من المتبربرين من خدم فى الجيوش الرومانية . وطمع المتبربرون أيضا فى ثروة المدن الرومانية الا أن أعظم ما بعثهم على الاغارة على الدولة فرارهم من وجه متبربرين آخرين قدموا من آسيا حوالى ذلك الوقت .

حقيقة الاغارات

ونخطئ اذا تصورنا المتبربرين جميعا زاحفين نحوالجنوب كسيل من الماء يجرف ما يعتوره من العقبات ، أو اذا ظننا أن الحكومة الرومانية عجزت مرة واحدة عن صدهم فسقطت توا . لم يكن الأمر كذلك فكثيرا ما ردهم الرومان وأثبتوا أنهم أكثر منهم دراية بفن الحرب هذا الى أن كثيرين من المتبربرين سكنوا فى الولايات الرومانية باذن من القياصرة ودانوا لهم بالطاعة بل وتلقبوا بألقاب رومانية .

لفظ متبربرين

ويلزمنا أن ننبه أيضا الى أن لفظ متبربرين لا يصح اطلاقه عليهم جميعا فقد كانت قبائل منهم راغبة أشد رغبة فى الاحتفاظ بالحضارة الرومانيةوعلى استعداد تام للتمدين والترقى .

تأسيس ممالك المتبربرين

انحلت الدولة الرومانية انحلالا بطيئا وقامت محلها ممالك مختلفة متبربرة هى أصل الممالك الأوربية الحديثة فلتاريخ المتبربرين حينئذ شأن كبير .

القوط ، الهون ، واقعة أدرنة عام ٣٧٨

كان القوط يسكنون فى القرن الثالث وسط أوربا بين البحرالأسود وبحر بلطيق ، وانتشرت بينهم المسيحية ولكن علىمذهب أريوس. ثم هجم عليهم تتار من آسيا يعرفون بالهون وذلك فىعام ٣٧٤م. فسمح الامبراطور فالنس

للقوط بعبور الدانوب والسكنى فى أرض الدولة. ولكنه خشى كثرتهم فانقض عليهم ولكنهم تغلبوا عليه وقتلوه فى واقعة أدرنه عام ٣٧٨م. وفى عام ٣٨٣ منحهم الامبراطور ثيودوسيوس أرضا فى تراقية وآسيا الصغرى على شرط أن يعينوه فى حروبه .

تقسيم الدولة ٣٩٥ م
الاريك زعيم القوط يستولى على روما ٤١٠ م ، مملكة القوط الغربيين

وعند موت ثيودوسيوس فى عام ٣٩٥م انقست الدولة قسمين شرقيـة وعاصمتها القسطنطينية وغربية وعاصمتها روما . ثم تولى أمر القوط قائد طموح ولع بالحرب هو الاريك غزا ايطاليا واستولى على روما فى عام ٤١٠م. ولكنه مات قبل أن يتم فتح ايطاليا ، وارتحل قومه ويعرفون بالقوط الغربيين غربا وأسسوا مملكة لهم فى جنوبى فرنسا وشمالى اسبانيا .

لم يستقر القوط اذن فى ايطاليا ، ولم يكن سقوط روما اذ ذاك انتهاء الدولة الرومانية، ولكن كان لذلك الحادث أثر كبير فى نفوس الناس اذ كانت تلك المرة هى الأولى لتغلب المتبربرين على تلك المدينة العظيمة .

مملكة الفندال فى افريقية

لم تنته الدولة حينئذ ولكنها فقدت ولاياتها الواحدة بعد الأخرى فغزت قبائل الفندال افريقية عام ٤٢٩م. وقد وصلوا اليها مارين بفرنسا واسبانيا، وأسسوا مملكتهم هناك. وكانوا على عكس القوط قساة القلوب نهابين وانطمست على أيديهم معالم الحضارة الرومانية بافريقية .

الهون ، أتيلا ، واقعة تروى أو شالون ٤٥١ م

وفى وقت ما اتحد الرومان والمتبربرون أمام خطر دهمهم جميعا : ذلك هو اغارة الهون وكانوا متبربرين اسيويين أغاروا تحت قيادة ملكهم آتيلا على شرقى أوربا ونهبوه حتى أسوار مدينة القسطنطينية. ثم اتجهوا غربا حتى وصلوا الى فرنسا وهناك عند مدينة تروى قابلتهم جموع الرومان والقوط وانتصروا عليهم فى واقعة حاسمة تعرف بواقعة شالون فى عام ٤٥١ م . وفى العام التالى غزا أتيلا ايطاليا ولكنه لم يحاصر مدينة روما ومات فى عام ٤٥٣ م .

نهب الفندال روما ٤٥٥ م

نجت روما بذلك من شره ولكن دهمها الفندال فى عام ٤٥٥ م. واستولوا عليها ونهبوها نهبا تاما .

انتهاء الدولة الرومانية الغربية ٤٧٦ م ، أدوكر

ضعف القياصرة فى روما عن دفع هذه الكوارث المتوالية ؛ واستبد بالأمر دونهم قواد الجند وكلهم من أصل متبربر. وفى عام ٤٧٦م. أعلن أدوكر صاحب الأمر اذ ذاك انتهاء الدولة فى الغرب والاكتفاء بالامبراطور الحاكم فى القسطنطينية .

بقيت الدولة الرومانية الشرقية حتى عام ١٤٥٣ م. لما استولى محمد الفاتح على القسطنطينية وحاولت مرارا أن تحكم الاجزاء الغربية مثل ايطاليا واسبانيا وافريقية ولكن لم يكن نجاحها فى كل تلك المحاولات الا مؤقتا . وكان الأمر فى غربى أوربا للممالك الجديدة .

ايطاليا بعد عام ٤٧٦ م

تنازع على ايطاليا بعد عام ٤٧٦م. المتبربرون والقياصرة الشرقيون لأهميتها الجغرافية ولوجود روما بها .

القوط الشرقيون فى ايطاليا ثيودوريك

انتصر المتبربرون فدخل ايطاليا القوط الشرقيون فى عام ٤٨٩ م. تحت قيادة ملكهم ثيودوريك .

حكم ثيودوريك ثلاثا وثلاثين سنة ، وكان رجلا مستنيرا عادلا استعان بالرومان فى الحكم وترك للرعية ماألفته من القوانين وثلثى أرضها. ولكن القوط لم يختلطوا بالايطاليين بل حال بين الشعبين اعتناق القوط مذهب اريوس وكان فى رأى الايطاليين الحادا .

جستنيان

وبعد موت ثيودوريك فى عام ٥٢٦ م. نجح القيصر الشرقى جستنيان الذى خلد اسمه بجمع القوانين الرومانية فى استرجاع شمالى افريقية من الفندال واجزاء من اسبانيا من القوط الغربيين وايطاليا من خلفاء ثيودوريك

اللبارد فى ايطاليا

ولكن حكم القسطنطينية لم يدم طويلا ففى عام ٥٦٨م. أغارت على ايطاليا قبائل اللبارد وتملكت معظم شبه الجزيرة ولكن احتفظت الدولة الرومانية الشرقية ببعض ممتلكاتها فى ايطاليا .

مملكة البرجنديين

وفى أثناء ذلك أسست قبائل البرجنديين مملكة فى شرقى فرنسا تمتد من الالب حتى منابع اللوار .

انجلترا

جلت الجيوش الرومانيـة عن بريطانية لمـا هدد المتبربرون روما وتركت سكانها وشأنهم ؛ فلم يقووا على دفع قبائل الانجليز والسكسون والجوت التي تركت مواطنها الأولى حول مصب نهر الالب وأغارت على بريطانيا فى القرنين الخامس والسادس بعد الميلاد .

قامت للغيرين ممـالك متعددة صغيرة منهـا كنت ووسكس وسسكس ونور ثمبريا ومرسيا وايست انجليا ؛ ووقعت تلك الممـالك فى حروب طويلة وصارت انجلترة بذلك الانقسام بمعزل عن أوربا حتى أواسط القرن التـاسع لمـا خضع معظمها لحكم واحد .

ملك الفرنجة

تقدم كيف أقام القوط الغربيون والبرجنديون ملـكا فى جنوبى فرنسا وشرقيها . أما شماليها فقام فيه ملك الفرنجة ، ولهم شأن عظيم فى التاريخ فقد ورثوا ملك المتبربرين الآخرين ونشروا المسيحية وحكمهم فى أواســط أوربا وشماليها أى فى أرض لم تطأها قدم أى فاتح رومانى .

كلوفس

وكانوا فى أول أمرهم قبائل متحاربة ثم تولى فى عام ٤٨١ م . كلوفس زعامة بعض القبائل وأخذ يبسط سلطانه على جميع الفرنجة وعلى البرجنديين والقوط الغربيين ونجح نجاحا عظيما .

الفرنجية والبابوية

ومن أهم حوادث حكمه اعتناقه المسيحية فى عام ٤٩٦ م . وكان ذلك بدء صداقة بين الفرنجة والبابوات رؤساء الكنيسة فى الغرب أثرت فى تاريخ العصور الوسطى تأثيرا كبيرا ، إذ ساعد البابوات ملوك الفرنجة بنفوذهم المعنوى ، وساعد ملوك الفرنجة البابوات على إسقاط ملوك اللبارد وعلى إيجاد ملك فى ايطاليا يحكمه البابوات .

الفصل التاسع

مصر ولاية رومانية

علاقة الرومان بمصر

بدأت علاقات الرومان بمصر أيام البطالسة وقت ان كانت روما تكافح قرطاجنة ، وكانت تلك العلاقات ودية ؛ ثم خرجت روما من الحرب الفينيقية ظافرة وضعف البطالسة فدخلت مصر فى حماية الرومان ، يدفعون عنها أعداءها الآتين من ناحية الشرق ويسيطرون على علاقاتها الخارجية ويتدخلون فيما يقوم بين أفراد أسرة البطالسة من نزاع كل ذلك عملا بالسياسة التى تقدم وصفها والتى كانت تفضل السيطرة على أمم الشرق على حكمهم حكما مباشرا .

يوليوس قيصر فى مصر

وقد كان من نتائج ذلك أن ملوك مصر البطالسة لم يكن لهم بد من الاشتباك فى حرب الأحزاب فى روما التى تقدم وصف ادوارها عند الكلام على عصر الثورات . ومن ذلك أنه عند مافر پومبى بعد واقعة فرساليا الى مصر تبعه يوليوس قيصر . فاقام بها مدة مع كليوبطرة (من أشهر شهيرات العالم) وانتصر لها وثبت قدمها فى الحكم ، وتنازع مع أحد القواد المصريين واستولى على الاسكندرية عنوة . ويقال إن مكتبة الاسكندرية الشهيرة أحرقت فى أثناء ذلك النزاع . ولكن قيصر لم يغير علاقات الرومان القديمة بمصر بل تركها كما كانت ولم يضم مصر الى ممتلكات الدولة الأخرى .

أنتونى فى مصر واقعة أكتيوم مصر ولاية رومانية

ولما قتل يوليوس قيصر وقام انتونى واكتافيوس للثأر من قتلته اشتبكت مصر أيضا فى حرب الاحزاب الرومانية وانضمت كليوبطرة الى أعداء انتونى واكتافيوس ؛ وأراد الأول معاقبتها على ذلك ؛ ولكنه أحبها حبا شديدا وأقام معها فى مصر فى لهو ، وقام النزاع بينه وبين زميله اكتافيوس ، وانتصر اكتافيوس فى واقعه اكتيوم البحرية عام ٣١ م . وانتحر انتونى وكليوبطرة وصارت مصر منذ ذلك التاريخ ولاية رومانية .

مصر فى عهد اجسطوس

تقدم أن اجسطوس غير من نظام الحكم فى الأقاليم وانه أخرج معظمها من سيطرة السناتو ووضعها تحت حكمه مباشرة وقد كانت مصر من الولايات من هذا النوع ، ليس للسناتو فى أى أمر من أمورها دخل .

ولم يغير الامبراطور من نظام الحكم المتبع فى زمن البطالسة ، بجعل على البلاد واليا مقره الاسكندرية ، وقسمها الى عدة مديريات يحكم كلا منها مدير وقد بقيت البلاد على هذا النظام حتى انتهاء الحكم الرومانى .

كذلك بدأ الحكم الرومانى فى عام ٣٠ م . واستمر هذا الحكم الى أن فتح العرب مصر فى عام ٦٤١ م .

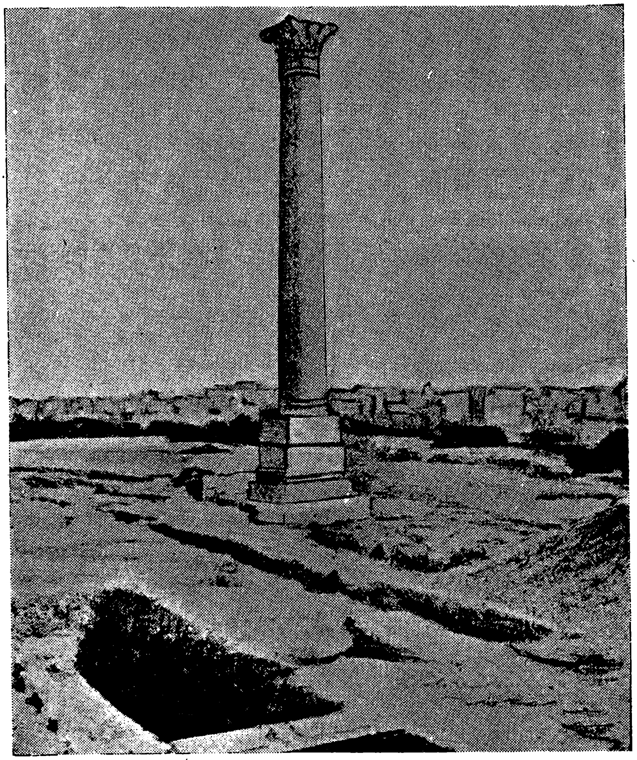
مميزات الحكم الرومانى

كان هذا الحكم حكما عسكريا محضا ، حكم دولة غالبة أمة مغلوبة : فلم تكن مصر فى أثنائه مركزا للحضارة الرومانية كما كانت أيام البطالسة مركزا للحضارة الاغريقية . ولم يك حكم ولاة أجانب باسم قياصرة بعيدين مما يمنع زوال الحضارة المصرية القديمة ، فلم يكن لمصر أثر فى نمو الحضارة الرومانية ولا هى احتفظت بحضارتها القديمة .

عمود السوارى
حصن بابليون

اهتم أفاضل القياصرة بحكم البلاد حكما عادلا بالعناية بتجارتها وغير ذلك من موارد ثروتها. فاعاد تراجان مثلا الخليج بين النيل والبحر الأحمر، وأصلح دقلديانوس من مالية البلاد وآثر أهل الاسكندرية على غيرهم فأقاموا عمودا تذكارا له هو عمود السوارى المعروف . وفى عهد هـذا القيصر وأمثاله عنى الرومان بدفع المتبربرين من عرب ونوبة وسكان الصحارى شرقى وادى النيل عن حدود مصر . وأقام بعض القياصرة أيضا بعض المبانى أو شيد أجزاء جديدة من معابد قديمة . ومن أشهر عمائر الرومان حصن بابليون وهو بناء قديم يقال إنه من صنع الفرس ولا تزال بعض أبراجه قائمة بمصر القديمة .

ولم تكن الأمور دائما على هذا المنوال فقد قاست مصر كثير أيام القياصرة الضعاف . فكانت تقوم عندئذ الفتن الكبيرة بين الأجناس المختلفة الساكنة



(شكل ٣٨ — عمود السوارى)

فى مصر وعلى الأخص فى الاسكندرية بين اليهود والاغريق ، أو يحاول عندئذ ذوو الأطماع من القواد الرومان الاستقلال بمصر ، أو يحاول عندئذ المصريون رفع النير عن أعناقهم . وكل ذلك يؤدى إلى سفك الدماء والفوضى وفقر البلاد .

استيلاء زنوبيا على مصر

وكان المتبربرون ينتهزون فرص الفوضى للاغارة على حدود البلاد . وبلغ الأمر أن تمكنت مملكة صغيرة من الاستيلاء على مصر وحكمها سنتين هذه

هى مملكة تدمر الواقعة فى الصحراء بين سوريا والفرات أيام ملكتها المشهورة زنوبيا .

انتشار المسيحية فى مصر

أهم ما حدث فى أثناء العهد الرومانى انتشار المسيحية فى مصر ولا يعلم بالضبط متى بدأ ذلك . والظاهر أن أول انتشارها كان بين اليهود المقيمين فى الاسكندرية ثم بين الاغريق ثم بين المصريين .

اعتناق المصريين المسيحية

اعتنق المصريون كلهم المسيحية وكانوا على استعداد لذلك . فالعبادات الوثنية القديمة كانت قد فقدت سلطانها على عقولهم ، ووجدوا فى الدين الجديد عقيدة الحياة الآخرة وهى من أهم عقائدهم القديمة ، وكانوا شعبا مستعبدا له فى تعليم المسيحية الاجتماعى سلوى .

الاختلاف بين المسيحيين الاغريق والمسيحيين المصريين ، الرهبنة فى مصر

هناك اختلاف بين الكنيسة الاغريقية والكنيسة المصرية : فتغلب فى الأولى الآراء الفلسفية وحب الجدل ، أما الثانية فتغلب فيها روح الزهد والتأمل . فكثير من المصريين من انزوى عن مساوئ العالم وشروره وأوى إلى الكهوف والصوامع ، وقامت فى مصر الأديرة الكثيرة . والظاهر أن من المصريين من آثر الرهبنة فرارا من الضرائب والخدمة العسكرية .

الاضطهاد أيام دقلديانوس

قاومت الحكومة الرومانية انتشار المسيحية حتى أيام قسطنطين كما تقدم ، وأسوأ الاضطهاد ما وقع أيام دقلديانوس فقد قتل بأمره عدد كبير من المسيحيين فى مصر . ويسمى الأقباط عصره بعصر الشهداء وجعلوا أول حكمه (سنة ٢٨٤م) مبدأ لتاريخهم .

انتهاء الحكم الرومانى

ساءت الحالة فى مصر على توالى الزمن : فصارت البلاد فى فقر مدقع لا تقوى على دفع مافرضته الحكومة عليها من الضرائب ، واشتد النزاع بين الطوائف الدينية المختلفة ، واختل الأمن فى قراها وعلى حدودها .

اغارة الفرس على مصر فى ٦١٧م

كره المصريون حكم الرومان ، فلم يسؤهم توغل الفرس فى أملاك الدولة الرومانية وفتحهم الاسكندرية سنة ٦١٧ م . ولكن لم يدم حكم الفرس طويلا

عودة الرومان ٦٢٨ م
فقد قام الامبراطور هرقل وأجلى الفرس من ممتلكاته وغزا بلادهم ودخل قاعدة ملكهم ، فاضطر الفرس إلى الانسحاب من مصر وعاد إليها الرومان. وذلك فى عام ٦٢٨ م .

الفتوح الاسلامية فتح مصر ٦٤١ م
لم تفد تلك الحرب الفرس ولا الرومان ، بل أضعفتهم جميعا وقت بدء الفتوح الاسلامية العظيمة التى مالبثت أن امتدت إلى فارس نفسها وانتزعت من الرومان سوريا وفلسطين ثم مصر فى عام ٦٤١ م .

تم طبع هـذا الكتاب بالمطبعة الأميرية ببولاق
فى يوم ٢١ من شعبان سـنة ١٣٥٣ (فى يوم
٢٩ من نوفمبر سنة ١٩٣٤) م

مدير المطبعة الأميرية
محمد أمين بهجت

المطبعة الأميرية ٨٥٦٣-١٩٣٤-٧٥٠٠